





قسطنطين زريق

معنى النكبة

الطبعة الثانية

دار العلم للملايين

قطنطين زريق

معنى النكبة

دار العلم للملايين

Lehman
DS

126.92

.28

1948

الطبعة الأولى ، آب ١٩٤٨

الطبعة الثانية ، تشرين الأول ١٩٤٨

توطئة وتقدمة



لست أدعي اني ، في هذه الدراسة المقتضية لجنة العرب في فلسطين ، قد « اخترعت البارود » (أو ، بلغة هذا العصر : « القنبلة الذرية ») ، أو اني اكتشفت الدواء الشافي لعلاتنا جميعاً . وانما هي محاولة لتصفية تفكيري ، في هذه الازمة الحارقة التي يترب فيها على كل فرد من افراد الامة قسطه من الواجب ونصيبه من التبعة . ولا شك في ان اول شرط لحسن القيام بهذا الواجب صحة الفكر واستواء الحطة .

فاذا كان من هذه المحاولة ، لبني وطني وللشعوب القومية المناضلة منهم خاصة ، فائدة في ازالة بعض البلبلة السائدة في جونا الحاضر ، فهذا غاية ما ارجو . والا فليكن نصيبها

نصيب النافل الكثير مما تصدره مطابعتنا اليوم . وعساي ،
على كل حال ، ألا اكون قد اخطأت المرمى فأضررت من
حيث أردت النفع والفائدة .

بهذا الشعور أتقدم بهذه الرسالة الى كل قومي متحرر
من بني وطني عربون ايمان ومشاركة وولاء .

فلسطين زرين

٥ آب ١٩٤٨

فداحة النكبة

ليست هزيمة العرب في فلسطين بالنكسة البسيطة ، او بالشر الهين العابر . وانما هي نكبة بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، ومحنة من أشد ما ابتلي به العرب في تاريخهم الطويل ، على ما فيه من محن ومآسي .

سبع دول عربية تعلن الحرب على الصهيونية في فلسطين ، فتقف امامها عاجزة ثم تنكص على اعقابها . خطب نارية يلقيها ممثلو العرب في أعلى الهيئات الدولية منذرة بما ستفعله الدول والشعوب العربية إن صدر هذا القرار او ذاك . وتصريحات تقذف كالقنابل من افواه الرجال الرسميين لدى اجتماعات

الجامعة العربية . ثم يجدّ الجدّ فاذا النار خافتة باهتة ، وإذا الصلب والحديد صدىء ملتبس سريع العطب والتفتت ، وإذا القنابل جوفاء فارغة لا تحدث اذى ولا تصيب مقتلاً .

سبع دول تتصدى لابطال التقسيم ، وقمع الصهيونية ، فاذا بها تخرج من هذه المعركة وقد خسرت قسماً لا يستهان به من ارض فلسطين ، بل من الجزء « المعطى » للعرب في التقسيم ، واذا بها تُقهر قهراً على قبول هدنة لا مصلحة لها فيها ولا غناء .

قضية لم يعرف التاريخ أعدل منها وأقرب إلى الحق : بلد يُغتصب من أهله ليُجعل وطناً لشرادم من الخلق ينزلونه من شتى اقطار العالم ويقيمون فيه دولة رغم أنوف اصحابه والملايين من اخوانهم في الاقطار المجاورة . ومع ما في يد العرب من حق صراح ، وما في بلادهم من امكانيات ، وما للدول فيها من مصالح يساوم عليها - مع هذا كله ، يقفون فرادى في الميدان الدولي ، تعاديهم الدول العظمى ويناوئهم الرأي العام العالمي ، وليس لهم حليف قوي قد اعـدوه ليسندهم في مثل هذا الظرف وينصرهم في صراعهم .

اربعمائة الف عربي أو اكثر يشردون من بيوتهم ، وتنتزع منهم اموالهم واملاكهم ، ويهيمون على وجوههم في ما تبقى من فلسطين وفي البلدان العربية الاخرى ، لا يدرون ما ينخبئه لهم القدر أو أي مورد من موارد العيش يرتادون ، ويتساءلون عما إذا كان سيحكم عليهم بالعودة إلى

بلادهم ليعيشوا تحت ظل الصهيونيين ، ويتحملوا ما يفرضونه عليهم من أذى وإهانة واذابة ، وافناء .

بل شر من هذا ! فقد تحول التشتت والتشرد من اليهود الى العرب . فبعد أن كان العرب لا يعترفون للمشردين اليهود بحق ، وبعد ان كانت الهيئات اليهودية تسعى لدى المنظمات الدولية لحل معضلتهم باقامة الوطن الصهيوني في فلسطين ، إذا بالدول العربية الآن تستعطف هذه المنظمات لاعادة مشردي العرب الى بلادهم الواقعة تحت الحكم الصهيوني ، وتجعل ذلك شرطاً لتحويل «وقف القتال» الى «هدنة» . وعلى الاجمال : لم يكن الوطن الصهيوني في فلسطين أقرب يوماً الى التحقيق منه في هذه الايام . وبالعكس ، لم يُصب الكيان العربي بعدُ بما أصيب به في هذه المعركة من تصدع وانهار .

وفوق الانهيار المادي انهيارٌ معنوي يتمثل في شك العرب بحكوماتهم ، واتهاماتهم لقادتهم وزعمائهم ، بل شك الكثيرين منهم في انفسهم وفي قابلياتهم كأمة ، وتسرب اليأس الى صدورهم ، وتهربهم من مجابهة الخطر ، وتضاؤلهم امام عظم المصيبة . ولعمري ! ان هذا الانتكاس المعنوي الروحي لأنهم من الحسارة المادية مهما عظمت ، لان الشعب اذا تفتت عزمه وخسر ثقته بنفسه ، فقد أضاع خير ما يملك وعجز عن ان ينهض بعد كبوة ، أو أن ينفذ عن نفسه غبار الذل والخذلان .

هي ذي بعض وجوه النكبة التي لحقت بالعرب في هذه
المعركة من حرب فلسطين . وكفى بها ، وبأمثالها مما يدور على
الالسن ويختلج في القلوب وبما يشاهده ويسمع به كل منا في هذه
الايام العصيبة ، دليلا على خطورة المحنة ، وشدة المأساة .

*

على ان من العدل والانصاف ان نسرع فنقول إن اسباب
هذه الكارثة لا تعود كلها إلى العرب انفسهم . فالعبدو
المتصدي لهم قوي الشكيمة ، غزير الموارد ، بعيد الاثر ،
قضى السنين - بل الاجيال - وهو يتأهب لهذا الصراع ،
وقد بث نفوذه وسلطته في مشارق الارض ومغاربها ،
واستولى على كثير من مصادر القوى في الدول العظمى ،
حتى دانت هذه له أو اضطرت الى بما لأته . وهو إذا حشد
قواه على احدى هذه الدول اتعبها واستأثر بكثير من
مصالحتها ، كما اظهر التاريخ البعيد والقريب فعلاً في كل من
دول الارض العظمى . فكيف به ، وقد نازل أمة
لا تزال في بدء نهضتها ، وفي المرحلة الاولى من تكونها
الاجتماعي والسياسي - أمة ظلت قروناً مقهورة على نفسها
بحكم استبدادي كاد يجردها عن ذاتها ، وما لبثت منذ ان
خلعت عن نفسها هذا الحكم الثقيل تسعى لانتزاع حريتها
واستقلالها من أقوى أمم الارض وابعدها نفوذاً ؟؟ ليست
الصهيونية تلك الجوالي والمستعمرات المنتشرة في فلسطين
فحسب ، وانما هي الشبكة العالمية ، المجهزة علماً ومالا ،

المسيطرة في بلاد العالم النافذة ، المسيخرة كل قواها لتحقيق هدفها في بناء وطن لابناء في فلسطين .
فمن الواجب أن نقر بهذه القوة الهائلة التي يمتلكها العدو ، وان نحسب لها حسابها عندما ننظر في معضلتنا الحاضرة ونسعى لمعالجتها . فلقد كان من شر ما بُلينا به في السنوات الاخيرة أننا ، بينما كما نطنب في تبيان هذه القوة وشروطها للغير ، كُنّا نحن بالفعل مستهترين بها ذاهلين عن ازديادها وتكثفها على الايام . ثم عندما نشبت المعركة أخذت دعايتنا الداخلية تلجج بانتصارات لنا خيالية ، وتخدر الجمهور العربي بسهولة صراعنا الحربي ومقدرتنا على التفوق والانتصار - الى أن وقعت النكبة ووقع معها رد الفعل المرير . ولعل ان يكون من حسنات هذه الهزة العنيفة ان تردنا إلى الواقع ، وتنبهنا إلى حقيقة الحال ، فتساعدنا على أن نقدر الامر قدره وننخذ له عدته .

قلت : من الحق والواجب أن نقر بقوة العدو الهائلة ، فلا نحمل انفسنا من اللوم فوق ما تستحق . ولكن من الحق والواجب كذلك ان نقر باخطائنا ونتبين مصادر الضعف في كياناتنا ، وان نعرف مدى مسؤوليتنا في هذه الكارثة التي اصابتنا . ومن الشر كل الشر أن نتهرب من هذه المسؤولية ، ونعمي أبصارنا عن مناحي تقصيرنا ، فننجي باللائمة على هذا أو ذاك من سوانا دون أن نرى الضعف والعيب والفساد في نفوسنا . فما اكثر ما نسمع بيننا اليوم

من شتم لليهود ، ومن تنديد بالانكليز والأميركان والروس ،
وبمجلس الامن ووسيط الامم المتحدة ، وبكل من يقف
مناوئاً لنا في هذا الصراع . لا شك في أن هؤلاء عادونا
ويعادوننا ، ومن الضروري أن نحذرهم وان نذكر
لكل موقفه ونحاسبه عليه كلما سنحت لنا الفرصة
واكتملت عندنا القوة . لا شك في انه يجب أن نحمل كلاً
منهم مسؤوليته أمام التاريخ ، ونجابه بها ما استطعنا الى
ذلك سبيلاً . لا شك في انه يجب ان نحفظ هذا كله في
قلوبنا ونلقنه ابناءنا واحفادنا ، ونعتبره في رسم سياستنا
وتدبير أمورنا . ولكن يجب ان لا ننسى ، في الوقت
نفسه ، ان السياسة لا تزال قائمة على القوة والمصلحة ، وان
كلاً من هذه الدول تتبع مصلحتها اولاً ، وانه لا يكفينا
أن نندد بها ونحملها مسؤوليتها ، اذا نحن لم نندد اولاً
بمواطن الضعف فينا ونحمل أنفسنا ما يترب عليها من تبعه
وما يصيبها من نصيب في نكبتنا الحاضرة . وإذا كان
التهرب من الواقع ، والقاء العبء على الغير ، شراً خطراً
في الايام العادية ، فهو في ايام المحن والشدائد أصل العلة
ومصدر الفساد . وليس أفضل من هذه الايام فرصة لمحاسبة
النفس ، ولاستكشاف مواضع الضعف والعمل لمداواتها ،
أو البدء بذلك على الافل .

ومن العدل والانصاف كذلك عند نظرنا في هذه النكبة
وتقديرنا لمداها ونتائجها ان نعلم انها معركة في حرب طويلة الامد ،

وأنا إذا غلبنا فيها ، فليس معنى ذلك اننا خسرنا الحرب كلها ،
أو هُزمتنا هزيمة نهائية لا قيام لنا بعدها .

أجل ! إن هذه المعركة فاصلة من وجوه عدة . فعليها
يتوقف تأسيس الدولة الصهيونية أو بطلانها . وإذا خسرنا
المعركة بكاملها ، وتأسست هذه الدولة ، فمهما لا شك فيه
أن اليهود في العالم اجمع سيحشدون قواهم كلها للاحتفاظ
بها وتقويتها وتوسيعها كما حشدوها لانشائها . ولكن التاريخ مليء
بالمفاجآت ، والكيان المفروض بالقوة ، الذي لا يقوم على
سنن الطبيعة والاجتماع ، لا يمكنه ان يبقى طويلاً إذا جابهته
قوى طبيعية حية متمشية مع مجرى التاريخ .

ولذا ، فلا مبرر لليأس يستولي على نفوسنا ، ويشلّ
فعاليتنا ، وينزع منا ثقتنا بانفسنا وبامتنا ، كما فعل بالكثيرين
مننا ، فاحدث ذلك التخاذل المعنوي الروحي الذي قلت
انه أشد خطراً وأعظم هولاً من الخسارة المادية والهزيمة
الحربية . بل علينا ان نعد للغد عدته ، وان نأخذ
للمعركة القادمة أهبتها ، وان نتعلم من اعدائنا النظر البعيد
والترتيب المحكم ، والخطّة المدبرة ، والسعي الحثيث سنوات ،
بل اجيالا ، لتحقيق المطلوب وبلوغ الغاية . فما اكثر
ما نكسب اليهود في تاريخهم ، بل ما اكثر ما تعرض كيانهم
في فلسطين في السنوات الاخيرة للانهار والزوال . ولكنهم ظلوا
صابرين على المكاره ، متحملين الشدائد ، واضعين اعينهم على
الهدف المنصوب ، الى أن بلغوا ما بلغوه اليوم من قوة وبأس .

لا ! لست أعني بالدعوة الى العمل البعيد المدى ، والى
النظر الى الحرب بكاملها ، بدلا من الاقتصار على المعركة الحاضرة
- لست أعني بذلك مجرد الانتظار للحوادث تأخذ مجراها ،
والاتكال على الظروف تتناسب وتتوافق . فما الاتكالية
المتفائلة بالنجاح المحتم ، استناداً الى الظروف والمناسبات ،
خيلاً من التشاؤم المطبق والبأس الشال الذي تشيئه الهزيمة
الآتية . ففي كليهما تهرب من الواقع ، وتخلص واع او غير
واع من المسؤولية المترتبة والواجب المفروض .

وانما أعني بالنظر والعمل البعيدين ، الاهتمام والتدبير
على نطاق واسع ولمدى طويل . اعني مجابهة الواقع كما هو ،
وتعيين الغرض المطلوب ، ورسم الخطة المحسنة لبلوغه ،
وتحقيق ذلك يوماً بعد يوم ، دون يأس او أي نوع من
أنواع التهرب . هذه هي الطريق التي رسمها التاريخ
للظفر في الحروب ، ولبناء الدول وتكوين الامم .

*

عسى أن أكون في ما ذكرت آنفاً قد اصبت الحق
في وصف نكبتنا الحاضرة في فلسطين ، فابنت عن خطورتها
وفداحتها ، وشدتها علينا في حاضرتنا ومستقبلنا . وعساي
أكون كذلك قد صورتها في واقعها ، ورسمت الاتجاه الذي
يجب أن نتخذه منها ، والنظر الذي يقتضي أن ننظر به اليها .
فهذه هي الخطوة الاولى الضرورية لتحليل أية معضلة ،
ولبحث سبل معالجتها .

واجب المفكر



من شر ما تحدثه بعض المحن والشدائد في الامم توزع الآراء وتفرق النزعات في الافراد والجماعات . فتوى هؤلاء من شدة ما يصيبهم ذاهلين ضائعين : يؤخذون حيناً بهذا الرأي ، وحيناً بذاك ، ويتبعون أيّ دليل يدعي القيادة ، الى طريق الخلاص .

وشبهه بهذا ما حلّ بجمهور الشعب العربي ، بل بقيادة رأيه ومثقفيه ، اثر النكبة التي حلت بالعرب في فلسطين . فالواقع ان مئات الالوف من أهل هذا البلد المنكوب لم يشردوا من بيوتهم ويهيموا على وجوههم

فحسب ، بل ان افكارهم وآراءهم ، وافكار ابناء وطنهم في شتى منازلهم ، قد شردت ايضاً وهامت ، فانتشرت فيهم بلبلة في الرأي ، أقلّ ما يقال فيها انها نذيرٌ بشراً اعظم اذا لم تُبدّد ويحل محلها تفكير صاف وعزم موحد .

من مظاهر هذه البلبلة هذه الاتهامات المختلفة تكال حيناً لهذا وحيناً لذاك ، وتُصَبّ على هذه الجهة او تلك . وترى الناس من اثرها شيعاً ينجازون الى دولة من الدول العربية على أخرى ، ويهاجمون هذا او ذاك من زعماء العرب وقادتهم ، فيشغلون بذلك عن التفكير في العدو المشترك والمصاب الملمّ .

كذلك تختلف في تعليل النكبة وتحليل اسبابها . فمنها من يُرجعها الى نقص في الدعاية لقضيتنا الحق ، وآخرون لقلّة استعدادنا بالعدّد والاسلحة ، وغيرهم الى اختلاف النظر والعمل بين دولنا العربية ، او إلى غير هذه من مواطن الضعف فينا .

وتبرز هذه البلبلة ، بصفة خاصة ، في صفوف الشباب الواعي ، المتحفز للعمل ، المستعد لبذل ذاته في سبيل وطنه والمساهمة في حمل اعباء امته . ينظر هذا الشباب الى نفسه ، وإلى ماضيه : يتفحص ما قام به من اعمال ، وما حاول ان ينشئ من احزاب ، وما بذل من جهود في سبيل القضية العامة ، فيجد ان هذه كلها لم تكن وافية بالغرض المطلوب ، فلا هي استطاعت ان ترد الكارثة ، ولا

ارضت نوازع هذا الشباب او اشبعت طموحه الملحّ خدمة أمته وتحريرها . ويتساءل هذا الشباب عما يجب ان يفعل تداركاً لشرور الحاضر ، ودفعاً لآخطار المستقبل ، فلا يجد امامه سبيلاً واضحاً او اسلوباً معيناً . فيتخبط في شتى الآراء والاتجاهات ، ويتطلع حيناً الى هنا ، وحيناً الى هناك ، ويدور فكره في الاكثر على نفسه ، فلا يؤدي الى نتيجة ايجابية او اثر محسوس .

هذا النفر من الشباب ، الواعي ، المتلمس طريق الواجب ، المستعد للعمل والتضحية ، المتحرق لخدمة الوطن هو ذخر هذه الامة وعدتها لمستقبلها . هذا الشباب هو اليوم مضطرب البال ، موزع الفكر ، مشتت الارادة . اجلس في أيّ من مجالسه شئت ، ترَ هذا الاضطراب قائماً ، وتلمس البلبلة الشديدة الاليمة في تعليل الوضع الحاضر ، وفي تحرّي سبل الخلاص .

ولا جدال في ان هذه البلبلة ليست شراً كلها ، فان فيها من التساؤل والمحاسبة والتألم النفسي ما قد يشق طرقاً جديدة للمستقبل . ذلك أن التساؤل هو الخطوة الاولى للتقدم الفكري ، كما أن الألم قد يبعث قوى النفس ويحفزها لبذل اوفر وجهد أشد .

غير أن هذا التساؤل والتألم قد يضيع ويذهب سدى ، بل قد ينقلب شراً وسوءاً - قد يتحول التساؤل الى حيرة وضباع ، والألم إلى يأس قتال أو سلبية هدامة - إذا لم

يتصدّ لهما الفكر النير ، فيفصل بين الصواب والخطأ ، بين العناصر الايجابية والسلبية ، بين عوامل القوة والامل وعوامل الضعف والخبثية ، فينصر الاولى على الثانية ، ويوجهها التوجيه الحسن إلى ما يحفظ الامة ويُبقي ثقتها بنفسها .

هي ذي اذن وظيفة الفكر الواعي في هذه النازلة ، بل في كل شدة أو أزمة . هي ان يأخذ على عاتقه قيادة الرأي وسط الاضطراب والحيرة ، هي أن يلقي ضوءاً على الوضع المتخبط ، فيظهره على حقيقته ، ويميز بين مختلف عناصره ووجوهه . وظيفته أن يفرق بين الاسباب والنتائج ، فلا يقدم الثانية على الاولى ، وان يفصل بين الاسباب البعيدة والقريبة وبين الاصول والفروع ، فيعطي لكل شيء اهميته ، ويقدره قدره في العملية المعقدة المتشابكة .

فاذا فصل هذا الفصل وميز هذا التمييز عمد الى وصف سبل المعالجة ، فتناول الاسباب القريبة بمعالجة قريبة ، وتوجه إلى الاسباب البعيدة بعمل طويل النفس واسع المدى ، ولم يهتم بالمظاهر اهتمامه بالعوامل ، ولم يبذل للفروع ما يجب ان يبذله للاصول .

ولعمل قادة العمل وحاملي المسؤوليات الكبرى لا يرتاحون كثيراً الى مثل هذه المهمة يأخذها المفكر على عاتقه . وهم في ذلك على حق إذا كان الفكر مجرداً لا تتصل جذوره بالواقع ، وإذا كان المفكر غير شاعر بالمسؤولية ، أو وازنها بالميزات الصحيح العادل . حينئذ يحق لهم أن

يقولوا : « الحرب بالمنظار هيّن » ، وان ينظروا الى المفكر
شزراً ، ويستخفوا به . حينئذ يكون الفكر خليقاً بذلك ،
بل خليقاً بان يخفق من ذاته مهما كانت نظرة رجال العمل
اليه ، وتصرفهم نحوه .

إن هذا الشعور بالمسؤولية المترتبة على كل فرد من
افراد الأمة ، وعلى مفكرها خاصة ، في هذا الظرف
العصيب ، هو بالذات الدافع الى وضع هذه الرسالة ، وهو ما
يشفع - فيما ارجو - بما تتضمن من خطأ او تنطوي عليه
من ضعف . وما دامت ناشئة عن هذا الشعور ،
ومتسلحة بهذه العدة ، فلن تخشى مذمة او ملاماً في تبيان
الخطأ وتحديد التبعة ، وفي الكشف عن جذور الكارثة
الحاضرة ، والدعوة بصراحة وقوة الى اقتلاعها . فلعل ان
يكون منها بعض الفائدة في تبيان طريق الخلاص ودفع
الفكر والنفس اليها .

المعالجة القريية



قلنا ان نكبة العرب في فلسطين - كامثالها من الاحداث في التاريخ - لها اسباب قريية واخرى بعيدة . وعلى الفكر أن يميز بين هذين النوعين من الاسباب ، وأن يبين نوع المعالجة التي تناسب كلا منهما وتكون كفيلة باستئصاله والتغلب عليه .

فلننظر اذن اولاً في المعالجة القريية ، لنرى ما يجب عمله لتدارك الخطر المحيى ، وللوقوف في وجهه ومنع طغيانه ، اذا لم يمكن الان القضاء عليه قضاء تاماً نهائياً . على انه لا بُدّ من ان نلاحظ اولاً انه لا يمكن الفصل فصلاً

تأماً بين الاسباب القريبة والبعيدة ، فما الاولى في أحيان كثيرة سوى مظاهر للثانية وثمار ناشئة عن بذورها . وليست الحياة البشرية من البساطة بحيث يمكن تقسيمها وتنظيمها وإقامة الحدود بين اجزائها بصورة اصطناعية . وهكذا لن تكون سبيل المعالجة الآتية مستقلة عن سبيل المعالجة الاساسية البعيدة ، بل هي مرتبطة بها ومتفرعة عنها . وعلى المفكر أو المصلح أن يتناول الواجبين معاً ، وينظر اليهما كوحدة ، ولا يغفل عن النسبة ، بينهما ، بل يتصدى لكل منهما وعينه متجهة إلى الآخر بحكمة ودراية ، وحسن تدبير وتنظيم .

وليس بالامكان ، في هذه المحاولة الدراسية ، التعرض لجزئيات المعالجة - القريبة والبعيدة - ولتفاصيلها العديدة المتفرعة ، خصوصاً اذا كانت تلك الجزئيات تنظم في كليات ، وهذه التفاصيل والفروع تترد الى أصول تجمعها وتوحد بينها .

فما هي الاصول التي تستمد منها المعالجة القريبة ، والاركان التي تقوم عليها ؟

*

اركان هذه المعالجة ، بل هذا الجهاد ، في نظري ، خمسة : اولها تقوية الاحساس بالخطر ، وشحن ارادة الكفاح . فهنا الخطوة الاولى ، والعامل الاصيل . ولعل البعض يعتبر هذا القول خطأ أو جزافاً . كيف لا !

وأعمدة صحفنا طافحة بالمقالات المفصلة للخطر الصهيوني ،
والمحدّرة منه ، والخطب في هذا الموضوع تترى في كل آن
ومكان ، وذكر الصهيونية وشرها يكاد يكون على كل
شفة ولسان .

غير ان الواقع انه بالرغم من هذه الاقوال والاعمال لا
يزال الجمهور العربي ، بل فريق كبير من مثقفيه ، بعيدين
عن الاحساس الكافي بالخطر الاعظم الذي تمثله الصهيونية على
كل بلد من بلدان العالم العربي . إذ لم تبين لهم بصورة
مادية محسوسة وجوه هذا الخطر على موارد كسبهم ، بل
على كيانهم بالذات . ومع ما شاهدوا من الالوف المشردة ،
وما سمعوا عنه من اخبار التهديم والقتل والتمثيل وسواها
من الفظائع ، فانهم لم يدركوا بعد حقيقة الصهيونية وقوتها
العالمية ، وغايتها في الفتح والافناء ، وقساوتها العارية في
تحقيق هذه الغاية . لم يدركوا شدة النزعة الكامنة في صدور
القوم ، العاملة المتزايدة خلال العصور ، في سبيل تأسيس
دولة لهم في فلسطين ، ثم ما تشربته فتيانهم وشبابهم في
السنوات الاخيرة من النازية وسواها من حب السيطرة
والفتح ، وما يجدون في البلاد العربية ، الغنية الموارد ،
المحتلة مركزاً وسطاً في العالم ، من مجال لجهدهم القومي
التوسعي هذا .

ولكن ما لنا ولجمهور الشعب . ألسنا نرى بين بعض
حكامنا واركان دولنا العربية من يضع هذه القضية او تلك

من قضايا بلاده على مستوى القضية الصهيونية او قبلها ،
فيسمح لنفسه بان ينحرف عن معالجة الخطر الاكبر الشامل
الى الاهتمام بالخطر الاصغر الزائل ؟ فلا السودنة ، ولا
معاهدة بورتسموث ، ولا قضية النقد السوري اللبناني ، ولا
أي من المشاكل المشابهة ، توازي الصهيونية خطراً وبعد
أثر . إذ أن ما تمثله من استعمار وعبودية شرّ زائل يوماً ،
مهما بعدت أيامه وطالت جذوره . أما الاستعمار الصهيوني ،
فغاياته ابدال وطن بوطن ، وافناء قوم ليحل محله قوم
آخر : هو الاستعمار العاري المجرد باوضح الوانه
وأفزع أشكاله . وعلى هذا ، فلا يجوز أن يشغلنا عنه
شاغل ، حتى تلك المشاكل القومية التي اقضت مضاجع
حكوماتنا وما تزال . هذا إذا صرفنا النظر عن السياسات
التافهة ، والعنعنات الضارة ، والمنافسات الحزبية ، والشهوات
المحلية ، التي كان يجب ان تلم أذيالها وتستحي ، وتحنفي من
الميدان في هذا الظرف العصيب ، وتجاه الخطر الجاثم .

ونحن كثيراً ما نسمع ونقرأ في الصحف عن حاجتنا الى
الدعاية لقضيتنا في البلدان الاجنبية . ومع ما في هذا
القول من صحة ، فان الناظر المحقق ليرى انه بجانب هذه
الدعاية الخارجية ، يجب أن تنظم دعاية داخلية في عقر
دارنا ، وان حاجتنا إلى هذه ليست أقل من حاجتنا الى
تلك ، بل قد تكون أقوى منها وأشد .

المهم في هذا التنبيه الداخلي أن يستقر في الذهن العربي

وفي النفس العربية أن الخطر الصهيوني هو الخطر الاعظم على الكيان العربي . الاخطار الاخرى تتوجه إلى بعض اجزاء هذا الكيان ونواحيه ، أو تشمل العالم العربي وسواه من اجزاء المعمور . أما هذا الخطر فهو موجه إلى الكيان العربي بذاته ، بمجموعه ، باسـس وجوده . فكل ما سواه هين بالنسبة اليه ، ويمكن أن يُتسامح به ، أو يؤجل حله ، في سبيل دفع هذا الخطر الاشد الاشمل وصيانة النفس منه .

هذا ما يجب ان يوضع امام الشعب العربي ، مسنوداً بالارقام والوقائع . هذا ما يجب ان يستقر في ذهن حكامنا وعامتنا . هذا ما يجب ان نلخصه في فكر قاطعة وعبارات محكمة ، ونلقنه ابناءنا وطلبة مدارسنا صباح مساء .

هذا ما يجب ان تنصرف اليه اولا دوائر الدعاية في حكوماتنا ، مستخدمة الصحف والراديو وكل سبيل آخر من سبل النشر ، لتنمي في نفوس العرب اجمعين هذا الاحساس بالخطر ، بالخطر الاعظم ، بالخطر الفريد ، كي يكون كل فكر من افكارنا وكل عمل من اعمالنا متأثراً بهذا الشعور وصادراً عنه . فاذا قوي هذا الاحساس قويت معه ارادة الكفاح ، هذه الارادة التي لا تزال ، مع الاسف ، ضعيفة فينا . فكفاحنا في هذه المعركة كان ، على العموم ، كفاح متصنع متهمل ، لا كفاح مستميت ، كأن الجهاد كان فرض كفاية لا فرض عين .

هذه التعبئة الحسية الارادية ، هي ، في نظري ، الركن

الاول للجهاد الحاضر لدراء الخطر الصهيوني الجسم .

*

أما الركن الثاني فهو التعبئة المادية في ميادين العمل كلها . هو تجنيد قوى الامة الحربية بكاملها ، وتوجيهها الى ميدان الصراع . ورب قائل يقول : ان الدول العربية لا تزال ناشئة ، وجيوشها قليلة العدد هزيلة العدد ، وان في داخلها ومن حولها من المشاكل والمخاطر ما لا يسمح لها بان تلقي بمواردها الحربية كلها في الميدان . وفي هذا ما فيه من الصحة . غير انه يصعب على المرء ان يقتنع بان هذه الدول السبع لا تستطيع ان تحشد اكثر مما حشدته ، او انها - لو توفر لها الشعور بالخطر و ارادة النضال على وجهها الصحيح ، ولو احكمت الخطة واوثقت التديب - لما استطاعت ان تجمع قوة حربية أعظم كثيراً من هذه التي انزلتها للميدان فعبزت عن أن تقف في وجه الصيونييين . ومن العيب الشأن حقاً ان تظهر الدول العربية - وملايينها التي نتبجح بها دوماً - بهذا العدد الضئيل من الجيوش ، وبهذا العجز عن دك معاقل الصهيونية ، بل عن الصمود امامها . واذا كان الصيونييون بمحدودهم الجغرافية الضيقة قد تمكنوا من تجهيز أنفسهم هذا التجهيز الوافر الواسع ، فلم يعجز العرب - بمحدودهم الواسعة المفتوحة للشرق والغرب - عن أن يستجلبوا بالطرق المشروعة وغير المشروعة ما يحتاجون اليه ، أو على الأقل ما يُظهرهم بمظهر حربي أقوى مما ظهروا به ،

ان كان حقاً ان هذا كان جل ما استطاعوه . ومع الاعتراف بما للصهيونيين من موارد غزيرة وما يسندهم من قوى سياسية ومالية هائلة ، فان امكانيات الدول العربية من هذه الوجوه هي ايضاً غير قليلة ، لو احسن استغلالها وتم لها التنظيم المحكم والتدبير المنشود .

وبجانب التعبئة الحربية ، التعبئة الاقتصادية . فهي العصب الحساس والمورد الراوي . ولا أظن ان الشعوب العربية ، اذا تفهمت حقيقة الخطر ، تهجم عن التضحية بما يجب في سبيل هذه التعبئة . وانه لما يحزن حقاً ان المناضلين العرب كانوا يفتقرون مثلاً الى أبسط انواع الادوية وأدوات المعالجة ، وان رسلهم كانت تؤم بيروت ودمشق وسواهما من المراكز العربية ، لتستحصل على بعض الحاجات الاساسية التي يصعب على المرء ان يتصور عدم وجودها ، في حين ان جميع الجهات الحكومية والشعبية المسؤولة كانت تعرف اننا قادمون على قتال ، بل كانت هي نفسها تهدد بالقتال وتتوعد به . ومن المؤسف المثير ان نرى هؤلاء الرسل يطرقون أبواباً مختلفة ، فيظفرون حيناً ويخفقون احياناً ، دون ان تكون هنالك سلطة واحدة معينة تعنى بهذه الناحية على الاقل من نواحي الجهاد .

وكم هي مؤلمة تلك الملاحظات التي يسمعها احدنا من الزوار والمشاهدين الاجانب الذين كانوا يؤمون البلاد العربية في أيام القتال ، فلا يرون فيها مظهر الحرب الحقيقية .

يرون السيارات بالالوف تلتهم بنهم عنصراً من أهم عناصر الحرب ، ويشاهدون الناس يقبلون على أسباب اللهو والسرور ، وعلى الحفلات والدعوات ، شأنهم فيما قبل ، دون ان تغير الحرب التي شنتها دولتهم والدول العربية الاخرى اياً من عاداتهم ، أو ان تحرمهم شيئاً من ملذاتهم . ولقد كان أحدنا ، وما يزال ، اذا سمع ملاحظات هؤلاء الناقدين ، صادقين كانوا ام غير صادقين ، لا يجد نفسه قادراً على ردها ، بل يشعر في داخله بحجل عميق .

ومع التعبئة الحربية والاقتصادية تجري التعبئة السياسية : في الداخل لتوحيد اغراض الدول العربية وسياساتها ، وفي الخارج لاستمالة الدول الاجنبية . ولا نكران ان سياسة العرب قد بذلوا جهودهم في الناحية الاولى ، ولعلمهم لا يستطيعون في الوضع الحاضر ان يبلغوا أبعد مما بلغوه ، ما دامت الاطماع لا تزال متحكمة ، ومصالح السلالات والافراد نافذة ، وما دام الرأي العام في العالم العربي لم يتنبه بعد ، ويقوّ إلى الحد الذي يضغط به على أرباب هذه الاطماع والمصالح الضغط الكافي ليتجردوا منها ، قبل ان تدك ارائكهم ويذهبوا هم واطماعهم هباءً منثوراً ...

أما العمل السياسي الخارجي فقد حاوله أيضاً سياسة العرب فارسلوا الوفود واتصلوا بممثلي الدول ، وبثوا دعايتهم في المؤتمرات الدولية ، ولكن جهودهم في هذا السبيل كانت متفرقة غير حازمة . ولا يزال هنالك مجال واسع للعمل .

وقد شعرت الجامعة العربية بهذا في الايام الاخيرة ، فكلفت بعض اركانها - على ما قالت الصحف - القيام بمسعى سياسي قوي في اوربا الغربية قبل انعقاد هيئة الامم المتحدة في ايلول القادم . وهكذا دوماً تكون محاولتنا : لا تنفيذاً لحطة محكمة بعيدة الامد ، بل بسبب مناسبة ، وفي الساعة الاخيرة . أما الاتصال بالدول الكبرى فسأتناوله في القسم الخامس من هذا الفصل . على أن هناك دولاً أخرى يجب تمكين للصلات بها ، كدول اميركا اللاتينية مثلاً . ومع أن أكثر هذه الدول خاضع للنفوذ الاميركي والضغط الصهيوني ، فلا يحسن بوجه من الوجوه اهمالها ونقض اليد منها . وهناك كذلك الدول الشرقية في آسيا التي تجمعنا بها اخطار الاستعمار الغربي ، والتي عطفت على قضيتنا وآزرتنا ، والتي يجب تنمية صلاتنا بها لضمان هذه المؤازرة وتقويتها . ومن المؤسف ان روابطنا بهذه الدول لا تزال ضعيفة ولا تتعدى بالاكثر اتصال وفودنا بوفودها في المؤتمرات الدولية عند تأزم الخطر وتألب القوى .

هذا فيما يختص بالاتصال السياسي بالحكومات ، وتعبئة القوى العربية من هذه الناحية . أما فيما يختص بالدعاية الشعبية والتوجه إلى الرأي العام في هذه الدول ، فلقد كان جهد الدول العربية ضئيلاً جداً ، وكان يأتي من مصادر مختلفة : حيناً من الجامعة نفسها ، وحيناً من بعض دولها ، وحيناً من المكاتب العربية التي لم يتضح تماماً باسم من تتكلم .

فكان من الواجب ان تقوّى هذه الجهود وتعزز ، وتتألف وتتوحد ، لتحثث اثرها وتؤتي ثمرها . على ان هذه الدعاية الشعبية لن يكون لها ، مهما قويت وتعززت ، أثر بارز في المعركة الحاضرة ، لان الوقت قصير والخطر مداهم ، وعملية التأثير في الرأي العام ليؤثر بدوره في حكوماته عملية طويلة المدى . ولذا ، نفع حاجتنا الى تقوية هذه الدعاية وتوسيعها استعداداً للمعارك القادمة وللحرب الطويلة ، فان جل جهدنا في هذه المعركة الحاضرة يجب ان ينصرف إلى الاتصال بالحكومات ذاتها ، والتكلم بلغة المصلحة لا بلغة الحق والعدل ، وتعبئة جميع قدرتنا على المساومة ، في هذه السبيل . هذه التعبئة لقوانا السياسية يجب ان تمشي يداً بيد وتنظم مع تعبئة مواردنا الحربية والاقتصادية بل جميع نواحي حياتنا . هذا إذا أردنا النجاة والبقاء . وبالعكس ، فان الاستهتار والتهاون في هذه التعبئة العامة سيؤدي بنا إلى شر مما أودى ببعض دول أوروبا الكبرى في الحرب الاخيرة . ومردّ هذا الاستهتار ، بسلا جدال ، إلى ما اشرنا اليه سالفاً ، من عدم الاحساس بالخطر إحساساً كافياً ، وبالتالي عدم تنمية الارادة الواجبة للكفاح والنضال . لقد أصبحت الحرب اليوم حرباً شاملة ، لا تقتصر على الجنود في ميادين القتال بل تتعداهم إلى الشعب بكامله ، ولا تكتفي بجانب من موارد الامة ، بل تتطلب تجهيز هذه الموارد بكاملها . وقد فهم اعداؤنا هذه الصفة الاساسية من صفات الحرب الحديثة ، فاعدوا للامر عدته وعبأوا له جميع

مواردهم في الميادين كافة .

هذا هو واجبنا في الوقت الحاضر ، والى مثل هذه
التعبئة يجب ان نتوجه . واذا اضطرنا ذلك لان نوقف اعمال
الاصلاح والبناء الداخلي ، والى ان نحول لذلك الغرض
مخصصات الاشغال العامة والمعارف والزراعة بل جميع موارد
الدول العربية - فوق القدر الاقل السكاني للحياة - فليكن !
اذ لا الطرقات ، ولا الابنية ، ولا المدارس ، ولا الاونيسكو ،
حتى ولا الحفلات والمآدب ، لتغنيانا نفعا اذا انتصر الصهيونيون
في هذه المعركة نصراً مؤكداً واسسوا دولتهم ، وعرزوا
مخالبهم في جسم الامة العربية ...

*

ومن البديهي ان هذه التعبئة في كل من الدول العربية
لا تكفي إذا لم تتوحد جهود هذه الدول الى مدى ابعدها
بلغته في الادوار السابقة من هذه المعركة . ولذا فالركن
الثالث للجهاد الحاضر هو تحقيق اكبر قسط من التوحيد
الممكن بين الدول العربية : في ميادين الحرب ، والسياسة ،
والاقتصاد ، وسواها . ولا ريب في ان هذا التوحيد مقيد
- كما قلنا - باوضاع هذه الدول ومصالحها واطماعها
ومخاوفها . ولا يمكن ان يُحقق على وجهه الصحيح إلا بتبديل
عميق شامل ، ولذا فهو يدخل في نطاق الحل الاساسي لقضية
فلسطين ، بل للقضية العربية بكاملها ، الذي سنتناوله في
الفصل الثاني .

غير أنه ، بانتظار هذا الحلّ الاساسي ، وهذه المعالجة
المديدة الافق ، لا بُدّ من اتخاذ كل اجراء ممكن لتأمين
أوفر ما يستطيع من التنسيق والتوحيد بين جهود الدول
العربية . ولا اظن أحداً من العرب أعطي شيئاً من الملاحظة
والتفكير كان يؤخذ باقوال ساستنا وتصريحاتهم عقب
اجتماعات اللجنة السياسية أن الدول العربية لم تكن في وقت
من الاوقات أكثر اتفاقاً مما هي عليه الان ، وان الجامعة
العربية لم تكن يوماً أقوى مما هي في هذا الظرف العصيب .
بل قد يخيل الى المرء ان كثرة هذه التصريحات نفسها دليل
على ضعف وانقسام يخشى ذبوعه ويراد اخفاؤه ، وأن الجامعة
لم تصبح بعد من القوة والبأس بحيث تستطيع أن تفرض
على اعضائها اتحاداً مكيناً في الرأي والعمل .
كم مرة اجتمع أركان حرب هذه الدول في خلال هذه
المعركة ؟ وفي خلال هدنة الاسابيع الاربعة التي نمنا نحن فيها
على فراش وثير بينما العدو يسعى وينظم ليلَ نهار ؟ تُرى
هل حزمت قيادتنا الحربية امرها ، ونظمت جهودها ،
واتفقت على خططها في العمل ؟ أليس من ادل دلائل
الضعف أننا كنا نسمع كل يوم أربعة او خمسة بلاغات
حربية ، بدلا من بلاغ حربي واحد ؟ أليس من الضروري
أن تتوحد نظم الجيوش العربية ، واسلحتها ، بحيث يمكن
للجندي العربي ان يخدم في أي جيش من الجيوش العربية
بحسب الحاجة ؟

وفي ميدان السياسة : أليس بالامكان إيجاد أداة للتنسيق والتوحيد أخفّ وأكثر فعالية من اللجنة السياسية ، المؤلفة في أكثرها من رؤساء حكومات الدول العربية ، يرعون إليها بين آن وآخر ، وعلى كل منهم أعباء وهموم ثقيلة تشده إلى بلده ؟ أليس بالامكان إيجاد هيئة دائمة ثابتة في مكان واحد يوكل إليها تنظيم الجهد ومتابعته على ضوء سياسة واحدة تضعها الحكومات ؟

أما في ميدان الاقتصاد : فان اللجنة الاقتصادية للجامعة ، التي كان يفرض فيها أن تكون في هذا الظرف العصيب ، أداة التنظيم والتنسيق في الحرب الاقتصادية والمالية ، فاننا لم نسمع لها صوتاً ، ولا أحد يدري ما إذا كانت قد تشكلت وظهرت إلى حيز الوجود ، أم لا تزال في سجلات الجامعة ومقرراتها .

وكذلك الامر في ميدان الدعاية . وفي هذا الميدان ، قبل غيره ، كان مفروضاً أن يُحقق الاتفاق والاتحاد ، لانه المظهر الاول لجهد الدول العربية ، والدليل الخارجي على عزميتها ومثانة قصدها . ولكن الواقع كان على عكس ذلك تماماً . فلهيئة العربية العليا وفودها ، وللمكتب العربي فروعه ، وقد وُجد ممثلو هاتين المنظميتين فعلاً في وقت واحد في نيويورك ولندن في أدق مراحل القضية ، فلم يجتمع لهم جهد ، بل كانوا على العكس في تباعد وتنافر وتنافس . ولا ينكر أن أفراد هذه الوفود وسواها من التي أرسلت

إلى البلدان الأخرى بذلوا أقصى ما يمكنهم من جهد ،
ولكن انعدام الوحدة وتعدد السلطات وضياع المسؤولية
كانت في النهاية تشل عملهم وتبطله ، بل تأتي بعكس
المطلوب منه .

قلت : إن هذا التوحيد المنشود في ميادين الحرب
والسياسة والاقتصاد والدعاية وسواها مقيد بظروف الدول
العربية ووضعها الحاضر ، وإنه لا يمكن أن يرتفع فوق
مستوى هذا الوضع . فهو الأثر والثمرة ، والكيان العربي
القائم هو الأصل والعامل . على أن الخطر قوي مداهم :
لا يمكن معه انتظار الانقلاب الأساسي في الوضع العربي
لتأمين تلك الوحدة الأصلية الضرورية لحفظ الكيان ودفع
البلاء . ولذا كان على ذوي السلطان وحملة التبعات في
الدول العربية أن يضعوا الغرض العام قبل الأغراض الخاصة ،
وكان على الرأي العام في شتى أقطار العرب أن يلح في
المطالبة بالتنسيق والتوحيد ، وأن يضغط ما وسعه الضغط
في هذه السبيل ، وأن يثور على كل انقسام في الجبهة
العربية ، كي يذلل ما أمكن العقبات القائمة اليوم في وجه
التضامن العربي ويحمي كيان العرب في هذه المعركة .

*

وثمة ركن رابع للجهاد العربي الحاضر : هو إشراك القوى
الشعبية في النضال . فالجهاد يجب أن لا يقتصر على الحكومات
وعلى الجيوش النظامية ، بل يجب أن يسري إلى عموم

طبقات الشعب ، بحيث يقوم كل فرد من افراد الامة
بقسطه منه .

سيقال : ولكن الحرب الحديثة غير الحرب القديمة ، وهي
تطلب من اساليب التدريب والتمرس على استخدام ادوات
القتال الميكانيكية ما يعجز عنه المقاتل غير النظامي ، وأن
مثل هذا المقاتل قد يعيق في احيان كثيرة العمل الحربي
بدلاً من ان يساعده ويقويه .

على أن اختبار الامم في الحرب العالمية الاخيرة التي
استخدمت فيها اشد انواع الاسلحة واكثرها ضخامة وتعقيداً
دلّ على ان القوى الشعبية ، إذا احسن تنظيمها ، تستطيع
أن تكون للجيش النظامية سنداً قوياً ، بل ان تأتي في
بعض الاحيان بالضربة الفاصلة . هذا ما اثبتته النضال الشعبي
في بولونيا ، وروسيا ، والبلقان ، وفرنسا ، وغيرها من
الدول الكبرى والصغرى . لقد أثبت أن تعلق الشعب بوطنه
وتمسكه بارض آباءه واجداده ، ودفاعه عن اسرته وشرفه —
كل ذلك يبعث فيه من الشجاعة والتضحية والاستماتة ما
يعوض عن التدريب الموفور للجيش النظامية ، بل ما يقوي
روح المقاومة في هذه الجيوش ، وفي الامة بكاملها .

ولماذا نذهب بعيداً ، والعدو امامنا يعطينا على ذلك
أفضل دليل واسطع برهان ، ترى هل اقتصر هذا العدو
في نضاله على جيوش نظامية ، أم اشاع هذا النضال في
الشعب الصهيوني بكامله : في رجاله ونسائه ، في مختلف

جواليه ومستعمراته ، فكان الفرد منهم يشعر انه خلية من خلايا الجسم المناضل ويدافع ويهاجم بكل ما فيه من قوة وحياة ! وإذا كانت هذه حال المغتصب ، فكيف تكون حال المعتدى عليه المدافع عن ارضه ودمه وعرضه ؟

وسيقال : لقد اثبت الشعب العربي في فلسطين ضعفه وعجزه . فما أن اطلقت القنابل الاولى عليه حتى انهزم شر هزيمة ، وجلا عن مدنه ومراكزه وسلمها لقمة سائغة للعدو . بل ان جزءاً كبيراً منه انهزم قبل المعركة واحتمى بالبلاد العربية الاخرى ، وبالمناطق النائية من فلسطين .

ولست أنكر أنه قد ظهر في الجسم العربي ، في فلسطين وسواها ، جبن وتفسخ . ولكن هذه التهمة الشاملة فاسدة في أساسها يردّها تاريخ هذا الشعب بكامله ، وما يتحلى به من شجاعة طبيعية ومن جرأة وتضحية في القتال . ويردّها كذلك ما قام به هذا الشعب خلال الثلاثين السنة الاخيرة في ثوراته المتتابة على السلطة الغاصبة وفي مهاجمته للصهيونية . ويرد هذه التهمة ايضاً ما بذله ابناء قراه ودساكره من اموالهم ومواردهم في شراء الاسلحة والذخائر باعلى الاسعار للدفاع عن كياناتهم ، وما اظهروا من جرأة ، وما احرزوا من فوز في جيوش الانتقاذ ، وفي الجهاد المقدس ، وحيثما تم لهم قسط من القيادة والتنظيم . كلا ! لم تكن العلة في الشعب نفسه ، بل في قاداته الذين لم يدربوه ، ولم يسلحوه ، بل لم ييسروا له سبل التسليح ، ولم يدلوه على طريق العمل وسبيل الجهاد . أليس

بين الوف الشباب العربي ، المتعلم وغير المتعلم ، قلة يمكن
تهيئتها لهذا النضال الشعبي ، وجعلها خيرة لسريان روح
هذا النضال في مجموع الامة ؟ أليس من بؤادر الخذلان
الشائن ان يلتفت فريق كبير من الشباب المتعلم في البلاد
العربية حوله ، ويبحث عن منحى يقوم فيه بنصيبه من
الجهاد فلا يجده ؟ أليس من الضعف والهزيمة ان تكون
ابواب التطوع مقفلة أو ضيقة الى أبعد حدود الضيق ؟
ألا فليحذر أولئك الذين يتهمون الشعب ويعرضون عن
النضال الشعبي . فهم بذلك يخسرون عنصراً أساسياً من عناصر
الجهاد ، بل يكتبون روح النضال في صميمها . على ان هذه
الروح ، وان اضعفت حيناً ، فلا بُد لها يوماً من ان تهب ،
وقد تثور على قامعيها أولاً ، ثم تنطلق في جوانب الامة
جميعاً ، لتجعل الجهاد لحفظ الكيان وحماية الوطن جهاداً
شاملاً بالمعنى الصحيح .

*

ومن اركان الجهاد العربي الحاضر لحفظ فلسطين استعداد
العرب للمساومة ، وللتضحية ببعض المصالح لدفع الخطر
الأكبر . فمن الضروري أن نشعر اننا لم نبلغ بعد من
القوة والسلطان درجة تسمح لنا بنيل مطالبنا وتأمين مصالحنا
كلها دفعة واحدة ، واننا مضطرون للتضحية بأشياء في ميثاق
غيرها ، وان للدول الكبرى في بلادنا مصالح هامة يمكننا
أن نساوم عليها لبلوغ غاياتنا . فلم يعد بالامكان في هذا

العصر الذي تشابكت فيه حياة الدول ، ان تحل اية أمة
مشاكلها بالاستقلال عن الأمم الأخرى ، ودون تبادل في
المصالح والمنافع .

على ان لهذا التبادل شروطاً إذا لم تحقق لم يأتِ
بالفائدة المطلوبة ، بل انقلب شراً ومضرة . من هذه
الشروط ان لا يكون قائماً على العاطفة و « الصداقة
التقليدية » و « المحالفة الطبيعية » ، فهذه كلها لا تعدو في
أكثر الأحيان ان تكون أشراكاً واحابيل لاختفاء الاطماع
وتغطية الاستغلال والاستثمار . والاساس الوحيد لهذا التبادل
في دنيا المعاملات الدولية الحاضرة هو المصلحة ، والمصلحة لا غير .
ولذا كان من شروطه ايضاً ان يُقبض ثمن كل تنازل عن
مصلحة بتأمين مصلحة مقابلة . فلا نخالف مثلاً الدول
الديمقراطية على الشيوعية ، ونضطهد الأحزاب اليسارية في
بلادنا ، لوجه الله وجرياً مع الصداقة ، او لمجرد التخاذل .
وكذلك يجب ان يستهدف هذا التبادل مصلحة الأمة
بأكملها ، لا مصلحة فرد او افراد أو طبقة منها . فلا
يكون هؤلاء حلفاء - واعين أو غير واعين - للغير على
عامة الشعب . واخيراً يجب ان تنظم مصالح الأمة في مراتب
بحسب خطورتها ، فيضحي بالقليل في سبيل الكثير ، وبالأزائل
من اجل الباقي .

ولا مراء في ان مصلحة العرب الاولى في هذا الطور
من تاريخهم هي في حفظ كياناتهم من الخطر الصهيوني . وعلى

هذا كان مفروضاً عليهم - بسبب وضعهم الخاص والوضع الدولي العام - ان يضحوا بمصالح أخرى في هذا السبيل . غير ان عليهم كذلك ان يبدلوا هذه التضحية بوعي واحترار وعلى الاسس التي يبنّا ، والا انقلبت هذه المساومة تفريطاً ، وجرت المنفعة من جهة واحدة فقط ، واضاع العرب مصالحهم تلك فوق مصالحهم الكبرى في فلسطين .

ولا يعتقدنّ احدٌ ان هذه المساومة عمل هيّئ . فانها تتطلب قيادة الامة على صراط ضيق ملتو محاط بالمزالق والمهاوي . وتتطلب بصيرةً وحسن دراية وتفهماً للعقل الغربي ومصالح الدول المتضاربة . ولكنها تتطلب قبل هذا كله اخلاصاً لمصلحة الامة ، وتضحية بالاغراض والاطماع الشخصية في سبيلها . هذه هي الصفات المطلوبة في رجل السياسة للقيام بهذه العملية الدقيقة الخطرة . بها يقاس دهاؤه وتحتبر اصالته . بها ترتفع سياسته عن معناها الضيق الحقيير وتصبح اداة للبناء والحلق فما تدخل شيئاً إلا « اصلحته » . بها يستحق ان يحفظ له التاريخ ما حفظ للسياسة البناءة ، السياسة الحقيقيين ، من عز ومجد وفخار .

*

تلك هي ، في نظري ، الاركان الخمسة للجهاد الحاضر : الاحساس بالخطر وارادة الكفاح ، والتعبئة العامة ، والتوحيد بين جهود الدول العربية ، واشراك القوى الشعبية ، والمساومة الدولية الواعية ، هذه وسواها شروط اساسية

لنجاح مسعانا العاجل في ردّ الخطر الصهيوني وحفظ كياناتنا القائم منه . وهي ضرورة بسبب التحول الذي طرأ على المشروع الصهيوني ، وما اصابه من التقدم في الآونة الاخيرة .

فلقد دخلنا الحرب الحاضرة ، والذهنية المسيطرة علينا هي أن الحال لا تزال على ما كانت عليه سنة ١٩٣٩ وما قبلها وأن المظاهرات والمناوشات والهجمات المتفرقة هنا وهناك التي جربنا عليها في ثوراتنا على الدولة المنتدبة كافية في الحرب الحاضرة . وخفي علينا ان غاية هذه الجهود حينذاك كانت إزعاج الدولة المنتدبة وإضعاف هيبتها وخلخلة أسس حكمها ، والتأثير بذلك على الرأي العام فيها وفي العالم لتخفيف وطأتها ودفع الخطر الصهيوني القائم على حمايتها . ولما كانت السلطة البريطانية سلطة منتدبة ، وحكمها موقت ، نظرياً على الأقل ، ولما كانت قوتها العسكرية أقوى كثيراً مما يمكن اهل فلسطين حشده ، كان طبيعياً ان يتخذ جهادهم هذا النوع من الكفاح والثورة .

أما الآن فقد اختلف الحال : لم يعد الجهاد موجهاً ضد دولة منتدبة بل ضد جماعة تؤمن بحقوقها في البلاد ، ويؤازرها في هذا الايمان فريق كبير من الرأي العام العالمي بفضل نفوذها وسيطرة دعايتها . وهي مستعدة لأن تلقي بجميع قواها في الميدان ، لان المعركة عندها معركة موت أو حياة : العرب أمامها والبحر وراءها ، وإذا فشلت الآن

فسيقضى على حلمها وعلى الجهود البالغة التي بذلت لتحقيقه خلال السنين .

ثم إنها قد حرصت في السنوات الاخيرة على استكمال عدتها وتقوية جهازها ، وتحولت من جوال متفرقة ضعيفة إلى قوة موحدة ، محكمة الربط ، شديدة المراس . فلم تعد تنفع معها المناوشات ، والهجمات المتفرقة ، والتجهيز الجزئي فحسب ، بل أصبحت الحاجة في كفاحها إلى حرب شاملة بالمعنى الحديث الذي أثبتته الاختبار في الحربين العالميتين الماضيتين .

هذا التحول في وضع فلسطين والصهيونية يفرض علينا اتجاهاً جديداً في جهادنا الحاضر ، ويضطرنا إلى تحقيق الشروط التي ذكرناها آنفاً - بل إلى تبديل ذهنتنا الكفاحية تبديلاً أساسياً - ليحقق جهادنا مطلوبه ، ويؤتي ثمره ، ولنكون حقاً أبناء الحاضر لا أبناء الماضي . وخاسر دوماً من يجارب الحاضر بالغابر !

*

سيقول القارى : كل هذا قد يكون صحيحاً جميلاً . ولكن ما شأنه في القضية القائمة الآن وفي الاسئلة الملحة التي تجابهنا ؟ أيستمر العرب في الهدنة التي فرضت عليهم فرضاً والتي تقوّي كل يوم جانب الصهيونيين عليهم ؟ أيقبل العرب بالتقسيم ، وقد تألبت اكثر قوى العالم لتنفيذه ؟ أي موقف تقفه الدول العربية من الامم المتحدة فيما اذا اصررت على تحقيق التقسيم بالقوة ؟

والجواب على هذه الاسئلة وسواها بما يشيروه الوضع الحاضر
موقوف على قوة العرب الحربية ، وعلى مقدرتهم في توجيه
ضربة سريعة ساحقة . والآراء في هذا الموضوع متضاربة :
بين مؤكدين ان القوى العربية أعجز في الوقت الحاضر ،
لاسباب مختلفة ، عن أن تحقق هذا الامر ، وبين موقنين ، من
جهة أخرى ، من ان هذه القوى لو اطلقت عنانها واحسن
تنظيمها وتنسيقها لسحقت العدو في فترة قصيرة ،
ووضعت العالم امام الامر الواقع . وعلم ذلك عند الله
والراسخين من قادة الدول العربية وخبراء العسكريين .
فلا مجال اذن لاي فرد خارج هذه الدائرة ، ان يحكم فيه .
بل ان من الجرم ابداء اي رأي في هذا الامر الجلل ، الا
إذا توافرت الأدلة على صحته ، لما يترب عليه من نتائج
خطيرة لوضع فلسطين ووضع الدول العربية ذاتها .

ولكن سواء اضربنا هذه الضربة الساحقة ونجحنا فيها
وتوصلنا الى اقامة دولة موحدة ديمقراطية في فلسطين ، أم
عجزنا عنها وفرض الصهونيون والعالم علينا التقسيم ، فالكفاح
يجب ان يظل قائماً . وان اسوأ ما يخشاه الناظر المحقق ان تخمد
روح الكفاح هذه ، حتى في حال نجاحنا باقامة الدولة الموحدة ،
فيسري خطر الصهيونية في جسمنا المهلهل السقيم سريان السرطان ،
ونصحو يوماً فاذا بفلسطين كلها - حريباً ومالياً وروحياً -
في يد الاقلية الصهيونية الناشطة المناضلة . كذلك في حالة
فشلنا وتحقيق التقسيم ، سنصبح لا محالة فريسة سهلة لقوة

الصهيونية الامتدادية واطمأئنها الاكتساحية ، اذا نحن لم نواصل
جهادنا ونزاع بيقظة ودقة الشروط التي ذكرنا انها واجبة
لنجاحه .

بل ان هذا الخطر الامتدادي الاكتساحي ماثل الآن ،
وقبل نهاية المعركة ، فلنحذر من متابعة طريقنا السابقة
الملتوية ، ولنجاهه بكل ما أوتينا من عزم وما نستطيع ان
نؤلب من قوى ، ولنوفّ لجهادنا الحاضر شروطه الخمسة
الأساسية ، فنبدأ بذلك طريق الخلاص الحقيقية !
ان عِظَمَ المجهود مقيسٌ بعِظَمِ الغاية ؟

الحلّ الاساسي



إنّ الجهاد الحاضر الذي وصفناه وأبنا أركانه وشروطه واجب للمعركة القائمة الآن . غير ان محاربة الصهيونية لاستئصال جذورها والتغلب التام عليها لا تتم في معركة واحدة ، بل تتطلب حرباً مديدة الافق بعيدة الاجل . ولنسارع الى القول - بكل صراحة واخلاص - إن هذه الحرب لن تؤدي الى نصر العرب ما داموا في وضعهم الحاضر ، وان 'جلّ ما يستطيعون تحقيقه في هذا الوضع هو اتقاء شر الصهيونية الآتية وحماية ما يمكن حمايته من الكيان العربي . اما الغلبة التامة النهائية على هذا الشر ،

فسيبيلها غير هذا : سبيلها تبدل اساسي في الوضع العربي ،
وانقلاب تام في أساليب تفكيرنا وعملنا وحياتنا بكاملها .
ان ما احرزه الصهيونيون من نصر - ولن ينكر هذا
النصر الا متغافل متعام - ليس مرده تفوق قوم على قوم ،
بل تميز نظام على نظام . سببه ان جذور الصهيونية متأصلة
في الحياة الغربية الحديثة ، بينما اننا نحن لا نزال في الاغلب
بعيدين عن هذه الحياة متنكرين لها . سببه أنهم يعيشون في
الحاضر والمستقبل ، في حين اننا لا نزال نحلم احلام الماضي
ونخدر أنفسنا بمجده الغابر .

الخطر الصهيوني : بل كل خطر اعتدائي علينا ، لا يردده
الا كيان عربي قومي متحد تقدمي . فانشاء هذا الكيان
هو الركن الاول للجهاد العربي البعيد ، ولا يتم - كما
قلت - الا بانقلاب اساسي في الحياة العربية ، ومن هنا
كان الجهاد الخارجي لدفع الاخطار الاعتدائية مربوطاً بالجهاد
الداخلي لاقامة الكيان العربي السليم ، بل موقوفاً عليه
ومرهوناً بنجاحه .

تري أيتحق لنا ان نقول ان ثمت وطناً عربياً ؟ اذا
عطينا بالوطن الجبال والانهار ، والسهول والشواطىء ، فهو
موجود بلا شك ، منذ ان نزل العرب ديارهم الحاضرة .
اما اذا عطينا به - كما هو الواجب والصحيح - تغلة
معنى الوطن في الذهن العربي ، وتولد الارادة لحمايته واعلاء
شأنه واطراد تقدمه ، فلا !

وسؤال آخر : هل ثمة امة عربية ؟ اذا اردنا بذلك شعوباً تتكلم اللغة العربية وتنطوي على امكانيات لتحقيق هذه الامة ، فالجواب بالاجاب . أما اذا اردنا بهذا اللفظ - كما هو الواجب والصحيح - امة موحدة المنازع ، محققة الامكانيات ، تتوجه للمستقبل ، وتفتح عينها للنور ، وصدرها للخير ، أنى كان مصدرهما ، فلا !

الصهيونيون لم يكن لهم وطن قائم بالمعنى الطبيعي الاول فנסجوا من تاريخهم القديم ومن آلامهم الحاضرة وآمالهم للمستقبل حلماً وعمدوا الى تحقيقه في أرض غير أرضهم ، وقطعوا في هذا التحقيق شوطاً غير قصير ، سلاحهم في ذلك تغلغل هذا الحلم وارادة تحقيقه في صميم حياتهم ، واتحادهم في هذه الارادة ، وتأصل نفوسهم في الحياة الغربية الحديثة ، واستعدادها لكل تقدم وتوثب .

ليس لهؤلاء الصهيونيين مزايا الامة الموحدة . فهم من بلاد متباعدة ، يتكلمون لغات مختلفة ، وينهجون مناهج متباينة ، لا تربطهم الا رابطة الدين والالم . ومع ذلك فقد وحدتهم الفكرة ، وشجذت همهم ، وخلقت فيهم الارادة الحاسمة للنضال ، فكادوا يحققون - بهذه الارادة ، وباقبالهم المطلق على الحضارة الحديثة - ما ليس طبيعياً ، بينما ان الطبيعي عند العرب - ان يكونوا امة - لا يزال غير محقق . وهنا الفارق الفاصل !

ان ارادة البقاء والكفاح لا تُصد إلا بارادة مثلها

أو أقوى منها . ووحدة الولاء لا تُقهر إلا بوحدة اتم وولاء
 اشد . والنظام القائم على المدنية الحديثة لا يُغلب الا بنظام
 أوسع اخذاً لهذه المدنية واوفر تسليحاً بقواها . والذهنية
 المتطورة المتوثبة لن تقف امامها ذهنية بدائية راكدة .
 وبالأجمال نكرر : ان الخطر الصهيوني ، بل كل خطر اجنبي
 لا يُدفع الاً بكيان عربي متحد يحقق لهذه الصفات ،
 ومثل هذا الكيان لا يتأتى للعرب إلا بانقلاب اساسي في
 نظم عيشتهم . فالى تفهم حقيقة هذا الكيان ، والى تلمس
 سبل ايجاده ، يجب أن تنصرف اذهان المفكرين والعاملين
 في البلاد العربية ، الراغبين في حل القضية الصهيونية ، بل
 القضية العربية بكاملها ، حلاً اساسياً ناجعاً .

*

فما هي ، اذن ، صفات هذا الكيان العربي الذي يجب
 تحقيقه ؟

اولى هذه الصفات الاتحاد : اي ان ينتظم العرب في
 دولة اتحادية توحد فيها سياستهم الخارجية والاقتصادية ،
 وقواهم الدفاعية . فان خمس دول أو ستاً ، او سبعة مستقلة
 الواحدة عن الاخرى استقلالاً تاماً - فيما عدا هذه الرابطة
 الضعيفة التي تمثلها الجامعة - مهمة كل منها بشؤونها ومصالحها
 الداخلية ، واقعة تحت تأثيرات اجنبية مختلفة وسلطات داخلية
 ذات مصالح متضاربة - ان دولاً هذا شأنها لا تستطيع
 دفع عوادي هذا الزمن الجارفة . وإذا كان الاتحاد المنشود

غاية قومية يستلزمها ما بين العرب من روابط لغوية وتاريخية ومصلحية ، فان الخطر الصهيوني قد جعلها شرطاً للبقاء ومستلزماً للحياة نفسها ، لان هذا الخطر ، مضافاً اليه الاخطار الاجنبية الاخرى ، كفيل بان يندس بين هذه الدول ، ويدق في جوانبها الاسافين ، فيقوي الاختلاف ، ويزيد المصالح المفرقة تباعداً وتناقضاً ، والبناء العربي خلخلة وتصدعاً . والعصي ما دامت منفردة او مربوطة بخيط هزيل ، فمن اليسير ان تكسر الواحدة تلو الاخرى . ولا يسلمها من العطب ، إلا شدة وثاقها بحيث لا تنفرط ، بل تواجه كل ضربة متحدة قوية ، فتردها خاسرة خاسرة .

على أن هذا الاتحاد وحده لا يكفي . بل هو نفسه لا يتم إذا لم يتحقق للعرب شرط آخر اساسي : هو التطور الاقتصادي والاجتماعي والفكري . ولذلك وصفنا الكيان العربي القومي المتحد المنشود بأنه ايضاً تقدمي *

وقد أصبح من الضروري لنا ان نعلم — بعد ان غدت

* يخشى بعض القوميين استعمال عبارات « التقدمية » و « الانقلاية » وأمثالها لكثرة ما يرددها الشيوعيون ، كأنها وقف عليهم وحدهم . على أني لست اعني بها هنا الثورة الطبقة او سواها من معاني النظرية الشيوعية . وقد آن الوقت الذي يجب أن تعلم به فئاتنا المتحفزة للتحرر ، ان التقدم والتوئب لتحقيق الحرية ، والثورة على الرجعية والاستغلال ليست من احتكار الشيوعية ، كما ان قوميينا يجب ان يدركوا ان اكبر خطر على قوميتنا هو الرجعية بشق مظاهرها ، وانهم اذا ارادوا أن يحاربوا الشيوعية حقاً فسيبيلهم الوحيد ان تكون قوميتهم مجارية لقوى الزمان ، مكافحة لقيادات الماضي ، نائرة على كل استغلال متمسكة سبل التقدم انى كانت .

القومية عندنا لفظة سهلة تدور على كل لسان - ان التكون القومي لم يظهر في الغرب ، ولن يظهر في أية بقعة من بقاع الارض ، اذا لم تتوفر له شروط اقتصادية واجتماعية وفكرية معينة . فهو لم ينشأ الا على انقاض الاقطاعية - بله القبلية - والطائفية والجزيرية والغيبية . لم يقم الا عندما دخلت الآلة فقلبت النظام البدائي الراكد المتفرق في الاقتصاد والعيش إلى نظام متطور اختصاصي متشابك ، وعندما خفضت الحواجز المنيعه القائمة بين طبقات الشعب ، وسرى العلم المنطقي المنظم فضبط نوازع الخيال ومجاري الفكر وحول العقلية البسيطة الساذجة إلى عقلية واعية متفتحة مركبة .

فالذين يعملون اليوم لانشاء قومية عربية واتحاد عربي على أساس الوضع الاجتماعي الحاضر يحاولون عبثاً ، لان جهودهم لا تماشي مجرى التاريخ وقوانين الاجتماع . ولن تثمر هذه الجهود إلا إذا ارتبطت الجهاد للاتحاد بجهاد للانقلاب الداخلي وُبني على اساسه . فالقومية والاتحاد القومي الذات قاما في عصر معين - هو العصر الحديث - وما يمثله من تطور في الفكر والعمل ، لا يلتئمان بشكل من الاشكال مع نظم القرون القديمة والوسطى وعقليتها .

هذا التطور بل - في حالتنا نحن - الانقلاب ، شرط لازم اذن لبناء كياننا المنتظر . والصفات الثلاث التي اطلقناها على هذا الكيان : «قومي متحد تقدمي» ، مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً ، لا تقوم

الواحدة منها الاّ بالآخرى . وهذه التقديمية الواجبة للبناء القومي هي ، في الوقت نفسه ، سلاح لا بُدّ منه لمجابهة الخطر الصهيوني وسواه من الاخطار الاعتدائية . وبهذا السلاح - كما ذكرنا آنفاً - تغلب علينا الصهيونيون في هذه المرحلة من كفاحنا ، وسيظلون يتغلبون ما دمنا عنه معرضين .

*

فما هي عناصر هذه التقديمية ، وما هي غايات الانقلاب المنشود ؟ ليس هنا مجال التفصيل في هذا الموضوع ، ومقابلة ما عليه وضعنا الحاضر بما يجب ان نكون . وانما نوجز فنقول إن غايات هذا الانقلاب تجتمع اخيراً في غاية واحدة واضحة . هي ان نصبح بالفعل وبالروح ، لا بالاسم والجسم فقط ، قسماً من العالم الذي نعيش فيه ، نجاريه في نظم العيش والفكر ، ونتكلم لغته ، ونتصل باصوله ، ونضم مقدراتنا الى مقدراته . ولبلوغ هذه الغاية يجب ان نتخذ خطى عديدة تقلب حياتنا من اوضاع العصور الوسطى والقديمة الى وضع العصر الحديث . واهم هذه الخطى ، في نظري ، هي التالية ، اعدّها تاركاً استقصاء بحثها وتفصيله الى مناسبة أخرى :

اولاً : اقتباس الآلة واستخدامها في استثمار مواردنا على اوسع نطاق ممكن . والآلة هي في مقدمة العوامل التي احدثت في الغرب ذلك الانقلاب الذي ادّى الى نظام الحياة الحديثة . وادخلها في حياتنا الحاضرة ، وما ينتج عنه من « تصنيع » لهذه الحياة ، كفيل الى حدّ بعيد بتهديم القبليّة

والاقطاعية وسواهما من النظم القائمة في وجه القومية .
ثانياً : فصل الدولة عن التنظيم الديني فصلاً مطلقاً ، فإن
الفكرة القومية منافية للثيوقراطية الحرفية . وكل دولة في
الغرب إنما حققت من التماسك القومي بقدر ما استأصلت من
جذور الطائفية ونظمت حياتها على أساس آخر ما توصل
اليه العقل المنفتح والفكر المتراكم .

ثالثاً : تدريب العقل وتنظيمه بالاقبال على العلوم الوضعية
والتجريبية ، وتوجيه الجهد الثقافي في الامة إلى تحقيق اكبر
قدر من هذا الانتظام العلمي ، والابتعاد ما امكن عن
الخيال المحذر والرومانطيقية المائعة ، الضائعة المضیعة . فليس
كالعقل المنتظم أداة لاستئصال الباطل وتركيز حياة الامة
على اسس سليمة .

رابعاً : - وعلى وجه الاجمال - فتح الصدر واسعاً
لاكتساب خير ما حققته الحضارات الانسانية من قيم عقلية
وروحية أثبت صحتها الاختبار الانساني الجاهد - فكراً
وعملاً - لبناء الحضارة . فانشاء الدول لا يقوم على
اكتساب الادوات المادية والعقلية وحسن استخدامها فحسب ،
بل على متانة في الخلق ، وعمق في الايمان ، وصبر على
المكاره ، وانطلاق الى الخير : وهذه كلها لا تتحقق إلا إذا
ثبتت الامة جذورها في القيم الاساسية التي كشف عنها
الجهد الانساني خلال العصور .

هذه ، عندي ، هي الصفات الاساسية للتقدمية المنشودة

وللانقلاب المرغوب فيه حياتنا الحاضرة . وقد ينظر البعض الى هذا الرأي شراً ، ويظنون أن في هذا الاحاح على اقتباس المدنية الحديثة ، بماديتها وروحيتها ، خروجاً على تاريخنا وإضاعة لتقاليدنا القومية . والواقع ان من تقاليدنا ما هو زائل ، وهذا سيتهدم وينهزم امام قوى الحضارة الحديثة ، سواء أثننا أم أبينا . اما الصحيح الباقي ، الموافق لهذا الزمان ، بل لكل زمان ، فهذا لا نستطيع ان نكتشفه ونفصله عن الفاسد الزائل ، ونتمثله في حياتنا الحاضرة تمثلاً تاماً محيياً ، الا بفعل العقل المتحرر المنتظم الذي يجب ان نقتبسه من المدنية الحديثة ونبنى انقلابنا على اساسه . ومهما يكن من أمر ، فليطمئن المشككون ! إذ لن تستطيع هذه التقدمية ان تودي بنا الى شر مما نحن عليه . فلقد انتهى وضعنا الحاضر ، لدى الهزة التي اصابته من النضال الصهيوني ، الى افلاس مادي ومعنوي فاجع ، ولم تغننا تقاليدنا في هذا النضال قليلاً . بل وجدنا ان عدونا - بالرغم مما اكتسب واختزن من الحضارة الحديثة ، بل بفضل هذا الاختزان - يفوقنا في شدة الايمان ، ووحدة الولاء والتمسك بالقوم والارض والوطن ، مثلما يفوقنا في الاسلحة الحربية والادوات المادية . فلا خوف إذن علينا من هذه التقدمية القومية ، بل الخوف كل الخوف من الانقباض عنها والتنكر لها والاختناق في اصدافنا الصلبة الموروثة .

☆

بقي سؤال واحد وأخير : ما السبيل الى هذا الانقلاب الشامل المحقق للتقدم القومي على أبلغ وجه وأوسع نطاق ؟ هنالك سبل ممهدة لهذا الانقلاب ومساعدة له ، منها : تشجيع الجهد الوطني في استغلال موارد البلاد ، ونشر العلم والثقافة بشتى الوسائل ، وتوسيع مدى الحريات السياسية والاجتماعية والفكرية ، واصلاح سبل الادارة ، وما إلى ذلك من وسائل التطور والتقدم .

غير ان هذه الوسائل ، على ما لها من الاثر البعيد في الانقلاب المنشود ، محدودة من وجهتين : الاولى أنها بطيئة العمل ، تحتاج الى جهد مديد ووقت طويل لكي تحدث التبديل الاساسي المرجو لوضعنا الحاضر . ونحن في حال لا نستطيع معها ان نفصح للوقت مداه ، وان نطلق للجهد حريته ليقوم بعمله على مهل وراحة . الاخطار الخارجية والداخلية التي تهدد كياننا لا تسمح لنا بانتظار التطور والتدرج ، بل تفرض علينا الوثب والانقلاب ، اذا اردنا السلامة وآثرنا البقاء . ثم ان هذه الوسائل المذكورة تحتاج الى من يوجدها ويقويها ويعممها : الى صَنعة مخلصين قادرين ، وقادة مبدعين . فهي ، من جهتها ، تساعد على وجود هؤلاء للقادة ، ولكن هؤلاء ، متى وجدوا ، هم الذين يضبطونها ويوجهونها لتعزير نتائجها وتعزير أثرها في احداث التبديل الاساسي المطلوب .

ان عوامل التقدم ، كجميع قوى الحياة ، متداخلة

متشابهة ، فالسبب يحدث نتيجة ، وهذه بدورها قد تصبح سبباً وتعمل في السبب الاول تقوية وتدعياً . وليس من عاقل يود ان يُبطل الوسائل التطورية التي ذكرناها - ككشر العلم وما اليه - ولكن لا شك في ان نقطة الانطلاق في ما يجب ان نسعى اليه اليوم من تبديل وانقلاب إنما هي في القادة والصنعة ، في الفئة المختارة المبدعة التي تستطيع ان تقبض على هذه الوسائل وتدفعها دفعاً في السبيل الوحيدة المطلوبة .

هذه الفئة المختارة التي ستلقى على عاتقها هذه المهمة الخطيرة - بل التي ستأخذ هي هذه المهمة وتقنصها اقتناصاً - يجب ان تكون قد حققت في نفسها التقدم والانقلاب اللذين تسعى اليهما في المجتمع . فالذي يعمل عن شهوة لا عن ايمان لا يستطيع ان يبث الايمان في الامة ، مهما علا صوته وزخرف قوله . والذي لم يجرر نفسه بل ظلّ عبداً لنوازعه واطماعه لا يمكنه ان يجرر الغير ، مهما ارتفع مركزه وعظمت سلطته . والذي يخيم الظلام على عقله ويعشش عنكبوت التعصب والرجعية في زوايا دماغه لن يتأتى له ان يبث النور في امته ، وأن ينشر التسامح والتضامن والوحدة في مجتمعه ، مهما تظاهر بهذا اللوث واكتسى هذا الكساء .

ولذا فالشرط الاول لنجاح العمل التقدمي الانقلابي ان يكون قادته واربابه تقديمين في انفسهم ، انقلابيين في

صحيحهم . فعلى كل من يتصدى لهذه المهمة الخطيرة ، ان يزن نفسه بهذا الميزان ، ويقدرها هذا القدر ، وعلى الشعب عامة - والمتقنين المتحررين منه خاصة - ان يحكموا قاداتهم بهذا الحُكْم ، فمن خلص معدنه كان حرباً بالقيادة ، ومن ثبت زغله حُكْم عليه ونال جزاءه .

ومن متمات وجود هذه الفئة المختارة ان تَنْتَظِم وتُتَّحِد في احزاب ومنظمات محكمة تقوم على عقيدة صافية موحدة ، وتربط بولاء صحيح متين تخضع كافة نزاعاتها له وتدين به عن رضى واختيار . وان نظرة واحدة الى تاريخ النهضات في العالم لتدلّ باجلى بيان على ان اجتماع قوى هذه الفئات المناضلة في هذه المؤسسات الحزبية وسواها كان اكبر عامل في احداث النهضة وقلب الاوضاع .

ومن متمات وجود هذه الفئة كذلك ان تُبَرِّز الى الوجود الزعامة الحقيقية ، وان تولد اولئك الافراد الذين يبنون الدول ويخلقون الامم ويضعون التاريخ . اولئك الذين تمتد جذورهم عميقة الى حياة الشعب كما هي ، وترتفع انظارهم في الوقت نفسه الى ما يجب ان تكون ، وما يزالون يعملون ، بمساندة اخوانهم في العقيدة والولاء ، حتى يتم لهم او لمن بعدهم صوغ الحياة الجديدة وتعمير الكيان المتهدم . اولئك الذين يعيشون كل دقيقة من دقائق عمرهم تحت وطأة الضمير ، وفي رهبة من حكم التاريخ . اولئك المتصوفون - لا تصوف زهد وإعراض ، بل تصوف إقبال واقدام -

الذين لا يسعون الى الرضى والسعادة ، بل تأتئهم السعادة والرضى
في فناء ذواتهم بذات الوطن الكبرى . وبكلمة : اولئك
الذين بدونهم ، وبدون امثالهم من المصلحين ، ما وجدت
أمة ، ولا زهت حضارة ، ولا كان للحياة الانسانية اي
طعم او معنى .

*

ان الكيان العربي القومي المتحد التقدمي الذي يتضمن ،
كما قلنا ، الحل الاساسي لقضية فلسطين بل للقضية العربية
كلها ، سيبقى حلماً وامكانية ، ما لم يتحقق اولاً في نفوس
الفئة المناضلة من ابناء الامة - وعلى رأسها الزعامة الحقيقية
المتولدة منها - ثم في النظم التي تنتظم بها هذه الفئة ،
والاحزاب والمؤسسات التي تنشئها .

وينظر أحدنا حوله فيجد ان نقطة الانطلاق هذه ما
تزال ضعيفة ، وان الفئة المناضلة المطلوبة ما تزال قليلة
متفرقة ، لم تتقو بعد بالنظر النير والجهاد الصاهر ، وقد
تضافرت مناوءات الاستعمار والطبقات الحاكمة ومغرياتها على
اضعافها وتشثيتها ، فكان لافرادها بعض الاثر ، ولكن لم
يكن لها مجتمعة متحدة اثر ملموس أو عمل بيّن .

ويلتفت فتيمان هذه الامم وشبانها ، فلا يجدون ضالتهم ،
من جهة ، في الزعامات القائمة ، ولا تروي طموحهم
المتوثب ، من جهة أخرى ، جهود الفئات القومية المتفرقة ،
فيجتاحهم اليأس ، وتطفئ على نفوسهم الحيرة : فاما ان ينتهوا إلى

الشك في ذات امتهم ، والقنوط من امكانيات شعبهم ،
ويتبعوا الطريق المرسومة في ارضاء الشهوات والتهالك على
المغريات ، وإما ان يصبحوا طعما لاية حركة هدمية ، يجدون
عزاءهم في الصخب والاضطراب لذاتها ومهما كانت نتيجتهما.
ولا ينجو من هذه الاخطار ويحافظ على ايمانه وعقيدته إلا
قلة من ذوي النفوس القوية والاعصاب المتينة . ولكن حتى
هؤلاء في خطر من التفرق والضياع بعد نكبة فلسطين!

على انه مهما كان من امر ، ومهما كانت عليه فئاتنا
المناضلة في هذه الايام من ضعف وتفرق ، فما لا شك فيه
ان منها نقطة الانطلاق ، ومبدأ الطريق ، ومبعث الرجاء .

*

هوذا مبدأ الطريق . اما اتجاهه ففي شحذ روح المقاومة
والجهاد عند هذه الفئات المناضلة ، ودوام تفاعلها مع الشعب
واحساسها بحاجاته ، وتبنيها لنهضات الامم الاخرى
واكتسابها لاختباراتها ، وتمكين تآلفها وانتظامها ، وانصهارها
في الولاء الواحد ، وتكرسها المتجدد للغاية المرسومة - الى
أن تصبح من القوة والاتحاد بحيث تحقق الكيان المرجو في
ذاتها ، فتغدو بذلك اهلاً لان تحققة في مجتمعا .

إن الانقلاب الاساسي في وضعنا الحاضر ، الذي فيه حلّ
قضية فلسطين والقضية العربية بمجموعها ، مرهون بمدى ما
تقطعه فئاتنا المناضلة في هذه الطريق ، وبنوع الزعامة التي
ستتولد منها في جهادها هذا . ولعل هذه الفئات مستعدة ان

اول ما يتطلبه هذا الانقلاب انقلابٌ في ذاتها ، وذهنيتها ،
وطرق تفكيرها وعملها . فالثورة ، ما لم تبدأ في النفس
وعلى النفس ، لا يمكن ان تنتهي الى الغير أو ان يكون
لها اي اثر في المجتمع . فلتنظر فئاتنا المناضلة في نفسها بهذا
المنظار ، ولتجاسب نفسها هذا الحساب ، فالموقف فاصل ، والنتائج
حاسمة ، وقوى الحياة لا ترحم .
وفي النهاية لن يصيبنا ، ولن نصيب ، إلا ما نستحق !

معنى النكبة



إن المتنوع لتاريخ الأمم وتطور الحضارات ليلاحظ ان نشوءها وتقدمها منوطان بما يكتنفها من صعاب وشدائد . وليس صحيحاً ما يقوله البعض إن الحضارات ظهرت اولاً في بلاد خصبة الارض ، سهلة الموارد ، جيدة المناخ . فاليسر والسهولة لم يكونا يوماً من الايام سبيلاً الى النمو والتقدم . وانما نشأت الحضارات وفت عندما جابهتها في محيطها الطبيعي او البشري مصاعب ومشاكل دفعتها الى جهد الفكر وبذل النفس للتغلب عليها . فكان في هذا البذل والجهد سبب تقدمها وسبيل خلاصها .

وحالُ الامم في هذا حال الافراد . وكلنا يعلم ان الفتى الذي ييسر له ابواه جميع اسباب التعلم والعمل ، لا يصيب ما يصيبه الفتى المعوز المضطر من كسب ونجاح . ولهذا نرى الأسر في الاغلب اجيالا : جيلاً يبني ويجمع بالجد والنصب ، ثم يأتي من يتمتع ويتنعم ، ثم من يبذر فيضيع . فالمصاعب والشدائد - حتى النكبات - حافز إذن للافراد والجماعات ، وعلة من علل تنبها ونهضتها . ولكنها ليست كذلك في جميع الاحوال . ففي بعضها تكون سبباً للتهدم والانهدام ، والتبديد والزوال .

الضربة التي توقظ الفتى الناشئ وتؤدي الى رد من جانبه عنيف قد تقضي على الشيخ الهرم المتداعي . والمشكلة التي تنبه العقل المنفتح وتزيده نشاطاً وفعالية قد تشلّ العقل المتفسخ المتراخي .

وكذلك عند الامم : قرب أمة تغلبت على ما في محيطها الطبيعي من عوائق وحواجز ، واخرى ارتدت عن مثل هذه العوائق عاجزة خاسرة . بل ان الامة نفسها تكون في دور من ادوار حياتها أقدر على تذليل عقبة ما مما هي في دور آخر ، وتستطيع في بعض الاحوال ان تتلقى الهجمات والنكبات وتنهض اكثر قوة وحيوية ، بينما تنهزم ، او تنعدم ، في حال اخرى . والتاريخ مليء بالشواهد على هذا كله .

يعتقد البعض ان هجمات البرابرة هي التي قضت على

الدولة الرومانية . والواقع ان الامبراطورية الرومانية كانت قد تلقت قبل البرابرة صدمات أشد هولاً واعظم خطباً ، فصمدت لها وتغلبت عليها ، بل اكتسبت من غراكها قوة جديدة وعزماً أنفـذ . ولكنها ، عند مجيء البرابرة ، كانت قد انحلت داخلياً ، فلم تقف امام هجماتهم . بل ان انحلالها ذاته هو الذي دعا البرابرة اليها ، وأطعمهم فيها .

وما زال بعضنا يؤمن بان غزوات الترك والتتو هي التي قضت على الخلافة العباسية وعلى الملك العربي عموماً . ولكن الواقع هنا ايضاً هو ان العرب كانوا قد غلبوا على امرهم داخلياً ، قبل أن يغلبهم التتو ، وانهم لو ثبثت عليهم تلك الغزوات وهم في دور تنبهمهم وغوهم لما طغت عليهم ، بل لعلها كانت ، بالعكس ، منشطة لهم ومجددة . وهكذا الحال عند باقي الامم .

*

ان النكبة التي نزلت بنا اليوم هي اذن محك لوضعنا الداخلي الحاضر . فاذا كانت عوامل الرجعية والانحلال هي المسيطرة علينا ، فان هذه النكبة ستزيدنا ضعفاً وانحلالاً وتفرقاً . اما اذا كان لعوامل التقدم والنمو بعض القوة - حتى لو لم تكن هي السائدة - فان الصدمة العنيفة التي تلقيناها خليقة بان تعزز هذه العوامل وتمشي بها قدماً بمزيد همة ، وتراكم أثر .

وإنا كثيراً ما نتكلم عن نهضتنا العربية الحاضرة ونباهي

بها . هذه النهضة هي اليوم رهن التحقيق ، وفي نار
الختبر : فاما أن تخرج بريئة خالصة ، وإما أن يظهر ضعفها
وفسادها ، وطغيان قشورها على لبها ، وصخبها على صحيح
عملها .

ولما كانت القوى المناضلة التقدمية هي التي تحمل في
النهاية اعباء هذه النهضة ، فإن النكبة الحاضرة - بل كل
صدمة تلقيناها في الماضي ، أو سنلقاها في المستقبل - هي
في الحقيقة اختبار لها ، وامتحان لمناعتها ومنايتها ، ولكفاءتها
للعمل واهليتها للقيادة . وهذا الامتحان لا قيمة له ولا أثر
إذا لم يكن المرء واعياً اياه ، بل إذا لم يصبح هو ذاته
المتحّن والمتحّن بوقت واحد .

فعلى كل عربي يضع نفسه في هذه المرتبة ان يتفحص حاله
ويتبين قدره . على رجال الفكر ، وعلى المجاهدين في شتى
مناحي العمل ، بل على كل متوثب متحفز لخدمة امته - على
هؤلاء جميعاً ان يمتحنوا انفسهم ، فرادى وجماعات ، ليروا
ما اذا كانت هذه النكبة قد أضعفتهم وشلتهم أو زادتهم
عزيمة ومضاء واتحاداً .

ليمتحنوا خلقهم ومقدرتهم على الصمود في وجه التعسف
والاغراء !

ليختبروا عقيدتهم وولاءهم وقوتها ازاء المحن والخطوب !
ليتفحصوا تقدميتهم وانقلابيتهم وحدتها وصلابتها امام
ضغط الرجعية وحملاتها !

ليقيسوا تفتح اعينهم للنور ، وصدورهم للتحرر بكل
معانيه !

ليحاسبوا انفسهم ، ويشوروا على مواطن الضعف والتشتت
فيها ، ويحتفظوا بعناصر القوة ويمكّنوها !

فان فعلوا ذلك ، خرجوا من هذه النكبة امضى عزيمة
وأقوى اتحاداً ، وكان لامتهم رجاء في الحياة وعدة
للمستقبل .

عندها ينقى ، بنار الحنة ، جوهрна ويتبلور كياننا .
عندها ، وعندها فقط ، يكون للنكبة معنى ايجابي
بنائي .

عندها ، وعندها فقط ، يخرج من العسر يسراً ، ومن
الاضطراب عزمٌ وصفاء ، ومن النكبة بذور ظفر وانتصار !

ملحق

في مبادئ جهادنا في فلسطين

•

يجد القارئ في ما يلي فصلين كتبنا في مناسبتين مختلفتين قبل النكبة ، حاولت ان ابين فيها المبادئ التي يركز عليها جهادنا في فلسطين . ويخيل إلي الآن ، وقد حدث ما حدث ، ان القارئ سيشعر لدى قراءتها بشيء من الفراغ في الفاظها ومعانيها ، وسيتساءل عما اذا كان يصح لنا ان نتحدث عن المبادئ ، بعد ان اثبت سير قضية فلسطين ان الكلمة العليا هي للقوة ، وان المصلحة طاغية طغياناً تاماً في

سياسات الدول وعلاقاتها بعضها ببعض .

صيقول ، ولا شك : آمنت بسمو المبادئ التي تقوم عليها قضيتنا ، ولكن ما نفع ذلك وغناؤه ؟ ماذا افاد العرب صحة هذه المبادئ وعدالتها ؟ أي أثر كان لها في القرارات التي اتخذتها أعلى المنظمات الدولية في هذه القضية ، وفي السياسات التي تتبعها الدول الكبرى والصغرى تجاهها ؟ هل ثمت ضمير دولي أو عالمي يتأثر بالحق والمبدأ ، عندما تلوح المصلحة المادية ، أو يفعل النفوذ فعله ، أو تكشف القوة عن أنيابها ؟ لنُشِح بوجهنا إذن عن الكلام الطيب والمعنى الجميل ، ولننصرف بكل ما فينا الى التجهز المادي والى استجماع القوى وتعبئة الموارد للمضي في كفاحنا .

وما انا عن هذه الدعوة الى بعث قوانا وتجميعها بغريب . بل إذا كان ثمت مغزى لتحليلي ، في صلب هذا الكتاب ، لاسباب نكبتنا وسبل معالجتها ، فهو هذا بالضبط . هو تنمية روح الكفاح ، وتعبئة الموارد ، وتعميم الجهاد . هو استئصال جذور الضعف وبواعث التفرقة ، وتنقية جسم الامة من ادران الفساد والرجعية ليغدو سلبيا قويا مؤهلاً للبقاء والنمو ، متغلباً على نفسه قادراً بذلك على الصمود لسواه . هو الانبعاث القومي الشامل ، والتجدد التقدمي الدائم . على ان هذه الدعوة الى التقوي والانبعاث لا تنافي تحريّ المبادئ واتباعها . بل ان الجهاد ليكتسب قوة اذا استند الى عقيدة ، وصدر عن ايمان ، وتعلق بمبادئ سامية وقيم

اصيلة . هكذا علم التاريخ وأثبت اختبار الشعوب . فالقوة العارية الغاشمة كثيراً ما طغت في حياة الامم ، ولكن الى حين . والثورات التي نشدت الاستيلاء على السلطة فحسب ، لم تؤد الى غير الاضطراب والهدم . اما الثورات الحقيقية ، الثورات البانية المجردة ، فقد كانت تدعمها المبادئ ، وتسيرها الاحلام الجميلة والمثل العليا الساطية على أذهان القادة ، المحركة لنفوس الشعب .

فلا يضير جهادنا في فلسطين إذن ان يصدر عن مبادئ صحيحة ، ولا يضير انقلابنا القومي المنشود ان تدعو اليه عقيدة سليمة وترسمه احلام صادقة ومثل عليا مبدعة . انما الضير كل الضير ان نعتقد ان هذه او تلك قادرة على حفظ كياننا وتأمين تقدمنا ، اذا نحن لم نعقل جملتنا ، ونحزم أمرنا ، ونعدّ لغدنا ما استطعنا من قوة .

ولست هذه القوة المنشودة في المال والسلاح والوسائل المادية وحدها . وانما هي ايضاً في عمق الايمان ، وشدة الولاء ، والاستعداد للتضحية ، والثبات في وجه التثييط والاغراء . هي في قوة الخلق ، ومتانة العصب ، وسلامة النفس . هي في اتفاق الرأي ، واتحاد العمل ، وانصباب الجهد في السبيل المؤدية للغاية .

هذه القوة ، الخلقة الروحية ، الضرورية للنضال لا تنأتى للمرء أو للشعب اذا لم يتبين المبادئ التي يرتكز عليها نضاله ، والغايات التي يسعى الى تحقيقها ، وقيمة هذه الغايات

والمبادئ في ميزان الاختبار التاريخي والتقدم البشري .
ان من دلائل الفساد واختلال القيم والموازن في هذا
العصر - ذلك الفساد الذي بدا واضحاً فاضحاً
في سير قضية فلسطين - ان يعمد رجل مهمته خدمة الفكر
وغرس المبادئ في قلوب الناشئة الى ان « يُلحق » بحشه
في المبادئ إلحاقاً بدلا من ان يضعه في المقدمة ، والى ان
يضطر الى ان يبور لنفسه ولقراءه ولوج هذا البحث .
ولكن ، ليُسجل لنا ، على الاقل ، اننا لم ننسَ هذه
المبادئ ، ولننظر ، من جانبنا ، نعمل في تثبيت اصولنا
فيها ، وتقوية نفوسنا بما تبعث من عزيمة وإيمان ، ولنحتفظ
بها ونستند اليها ونستمد منها ونحن نجمع قوانا للكفاح الحاضر
وللانقلاب القومي المنتظر .

هذا الذي اهاب بي الى ضم هذين الفصلين الى الرسالة ،
آملاً ان تتسق فكرتهما وفكرتهما ، وأن يؤديا معاً بعض ما
ارجو في إعداد الفكر الصحيح والعمل المثمر لحل قضيتنا
العاجلة والآجلة .

الصراع بين المبدأ والقوة في قضية فلسطين *

طلبت مني جريدة «العمل» الغراء ان اكتب مقالاً في القضية الفلسطينية ، فتوددت لسببين : اولاً كثرة ما كتب في هذا الموضوع من نواحيه المختلفة ، وما توافينا به الصحف والمجلات والراديو يومياً من آراء الساسة والكتاب والمعلقين على الاخبار مما لم يعد يفتقر الى مزيد ، وثانياً ان هذه القضية قد بلغت حدّاً لم تعد الحاجة فيه الى القول والجدل

* نشر في العدد الخاص بعيد الميلاد (١٩٤٧) من جريدة «العمل»
- بيروت .

والمناقشة ، بل الى العمل السريع والتنفيذ الحاسم . غير اني
عدت فليت الطلب ، آملاً ان يكون في ما سأقول بعض
الفائدة في اثارة المشكلة والكشف عن اسسها .

ولما كانت ظواهر هذه المشكلة متعددة ، وتفاصيلها
متشعبة ، وكانت هذه الظواهر والتفاصيل قد اخذت ، كما
قلت ، بالبحث الواسع والشرح المستفيض ، رأيت ان خير
ما يمكن عمله هو النفاذ الى الجوهر ورد الفروع الى الاصل .
فالمشاكل لا تُفهم في حقيقتها إلا عندما تردّ الى أصولها
ومبادئها . وقد كان من اثر الدعاية الصهيونية الهائلة ان
حيك حول لب المشكلة الفلسطينية نسيج من الآراء المضلّة
ألهى الرأي العام العالمي عن حقيقة ذلك اللب ، فاصبح من
العسير العودة اليه والوقوف على حقيقته . فلنعرّ هذه
المشكلة اذن من ظواهرها واعراضها ، ولننفذ الى الباطن
والجوهر ، ماذا ترانا نجد ؟

نجد اننا امام قضية يتصارع فيها المبدأ من ناحية ،
والقوة والمصلحة من ناحية ثانية . وعلى هذا فأثرها لا يقتصر
على العرب والصهيونيين فحسب ، بل يتناول العالم اجمع
فهي محك حيوية الضمير العالمي ، ولقوة التنظيم الدولي ،
وهي دليل على الاتجاه الذي سيتبعه المجتمع الانساني : الى
العدل والسلام او الى الظلم والحرب المستمرة .

المبدأ في هذه القضية هو حق كل شعب بالارض التي
يعيش عليها ، والتي عاش عليها اجداده قروناً طويلة ،

والتي صبغها بدمه وعرك ترابها بعرق جبينه ، حققه في استثمار مواردها ، وفي ان ينشئ لنفسه عليها الكيان السياسي والاجتماعي والثقافي الذي يختار ، شرط ان لا ينتقص من حرية غيره من الشعوب وحقوقهم .

ولقد جاهدت البشرية قرونا عديدة في سبيل اقرار هذا الحق ، فأهرقت باسمه الدماء وبذلت من اجله الضحايا ، حتى كانت الحرب العالمية الاولى ، فأعلنه زعماء الامم الحليفة ، وخيل للعالم انه سيكون اساس التنظيم الدولي بعد تلك الحرب . ولكن هذا الخيال ما لبث ان تحطم على صخرة المصلحة ، وعادت القوة والتوازن الدولي يسيران دفعة العالم . وكذلك كان الامر في الحرب الاخيرة : اعلان مبادئ سامية في ميثاق الاطلنتيك وسواه ، وتنظيم دولي جديد في الامم المتحدة ، ولكن القوة والمصلحة والتوازن الدولي لا تزال ، مع الاسف ، هي العوامل الفعالة في السياسة الدولية .

ونحن إذا راجعنا جميع القرارات والاجراءات التي اتخذت بشأن فلسطين وجدناها مناقضة لحق العرب الطبيعي ، وللمبدأ الاساسي في حق الشعوب بتقرير مصيرها ، هذا المبدأ الذي اعلنت الدول انها تحارب من اجله ، والذي بذلت باسمه الضحايا والنفوس بسخاء عجيب .

فوعده بلفور الذي اعطته انكلترا لليهود ، والذي يتخذه الصهيونيون أول حجر أساسي في دعواهم القانونية ، يخالف

كل المخالفة للمبدأ المذكور . إذ ليس من حق الانكليز ،
باي وجه من الوجوه ، ان يتصرفوا بارض ليست ارضهم ،
وأن يقرروا مصير شعب غير شعبهم . ولست اريد ان
أتناول هنا مخالفة هذا الوعد للعهد التي قطعها الانكليز للعرب
— على اهميتها — لاني اقتصر في بحثي هنا على الناحية المبدئية
فحسب ، دون النواحي الاخرى السياسية او سواها ، التي
هي ايضاً في جانب العرب .

ولقد يقول قائل : إن الانكليز اكتسبوا حق التصرف
بفلسطين بكونهم افتتحوها وغنموها من الاتراك العثمانيين .
والرد على ذلك ان الانكليز لم يفتتحوها وحدهم ، بل
بمشاركة العرب الذين حالفوهم وهبوا في ثورتهم الكبرى
المعروفة لتحرير بلادهم . على ان الرد المبدئي الأهم هو أن
حق الفتح لم يعد يمكن اتخاذه دستورياً في التنظيم العالمي ،
وإلا رجعنا بالمدنية الى العصور المظلمة ، ودسنا باقدامنا
المبدأ القومي الاساسي : وهو حق كل شعب بارضه وبتقرير
مصيره .

وقد يقول آخر : إن وعد بلفور قد اكتسب صفة
قانونية دولية عندما اقرته جمعية الامم وجعلت منه اساساً
من اسس انتداب انكلترا على فلسطين . والجواب ان
ما يبنى على اساس فاسد يبقى فاسداً ولو اقره العالم اجمع .
ثم ان الانتداب على فلسطين نفسه مناقض لمبدأ الانتداب
العام المنصوص عليه في المادة الثانية والعشرين من عهد

جمعية الامم . فقد جاء في الفقرة الرابعة من هذه المادة :
« ان بعض المجتمعات التي كانت تابعة فيما مضى للامبراطورية
العثمانية قد بلغت درجة من الرقي يمكن معها الاعتراف
موقتاً بكيانها كأهم مستقلة بشرط ان تمدها بالمشورة والمعونة
الادارية دولة منتدبة الى ان تصبح قادرة على حكم ذاتها
بذاتها . وينبغي ان يكون لرغبات هذه المجتمعات الاعتبار
الاول في اختيار الدولة المنتدبة » .

وعليه فادخال وعد بلفور في صك الانتداب على فلسطين
ليس مخالفاً لحق العرب الطبيعي فحسب ، بل يناقض كذلك
المبدأ الاساسي المتعلق بجميع الانتدابات على الاراضي التي
كانت خاضعة للسلطة العثمانية والتي اعترِف باستقلالها موقتاً .
فان سياسة الهجرة والعمل لبناء وطن يهودي قومي ينتقصان ،
ولا شك ، من هذا الاستقلال المعترف به . ناهيك بان اهل
فلسطين لم يؤخذ رأيهم لا في الانتداب نفسه ، ولا في اختيار
الدولة المنتدبة .

وهكذا ظلت فلسطين تحكم مدة خمس وعشرين سنة بنظام
غير مبني على مبدأ طبيعي او قانوني ، بل قائم بالفعل على
القوة والمصلحة . وهذه القوة سُطِيت على سيادة العرب بدلا
من أن يحافظ عليها ، واصبح كيانهم في بلادهم محفوفاً
بالخطر ، مهدداً بالزوال .

وجاءت الامم المتحدة اليوم فاقتوت الجريمة نفسها ،
وضحت بالمبدأ على مذبح المصلحة . فقرارها في التقسيم مخالف

لحق أهل فلسطين بتقرير مصيرهم بالطرق الديموقراطية المعروفة ومناقض كذلك لميثاق الأمم المتحدة نفسه نصاً وروحاً . فلو فرضنا ان الانتداب على فلسطين يقوم على اساس قانوني - وهو ما اظهرنا بطلانه - فاننا لا نجد في اية مادة من مواد الفصل الثاني عشر من الميثاق ، الذي يتناول البلاد المنتدب عليها ، ما يعطي الأمم المتحدة حق تقسيم هذه البلاد او التصرف بها كما تشاء . وانما هناك مبدأ واحد وخطة معينة لا يجب عنها . وهما مساعدة هذه البلاد على نيل استقلالها وتقرير مصيرها بنفسها .

ولذا فقرار الأمم المتحدة - كصك الانتداب - لا يقوم على اساس مبدئي او قانوني . وقد تقدمت الوفود العربية باقتراح مآله احالة هذه المسألة الى محكمة العدل الدولية لتبدي رأيها في صلاحية الأمم المتحدة لتقرير التقسيم ، فردّ حتى هذا الاقتراح ، بما يدل على أن الأمم المتحدة ، تحت ضغط القوى والمصالح المختلفة ، لم تكن مستعدة لأن تستمع الى صوت أعلى مرجع قانوني في العالم في هذه القضية .

نستنتج من كل ما تقدم ان الكفاح ضد الصهيونية وضد اقامة دولة يهودية في فلسطين ليس ، من جهة العرب ، كفاحاً قومياً فحسب ، بل هو كفاح من اجل مثل أعلى انساني ، كفاح بين الحق والقوة ، بين المبدأ والمصلحة .

*

وقد يتساءل البعض : أليس للصهيونيين مبادئ يبنون

عليها حركتهم ويكسبون بها دعايتهم ، فيكتسبون بواسطتها
العطف والتأييد ؟

أجل ! انهم يلوحون بعبدة « مبادئ » ، ولكن ليس منها
ما يقف امام الحقيقة والبرهان .

يدعي الصهيونيون ان فلسطين وطن اليهود القومي لانهم
سكنوها اجيالاً طويلة في الماضي ، ثم اجلوا عنها ، ومن حقهم
الآن ان يعودوا اليها . والواقع ان اليهود تسربوا الى فلسطين
في العصر القديمة ، كما تسرب غيرهم من القبائل السامية الى
بلدان الهلال الحبيب ، ولكنهم لم ينشئوا فيها مذكاً
سياسياً موحداً الا على عهد داود وسليمان (١٠١٧ - ٩٣٧
ق. م .) ولم يدم هذا الملك سوى سنوات معدودة . حتى في
هذه المدة القصيرة لم يشمل حكمهم فلسطين بكاملها بل ظل
للفلسطينيين وسواهم قوة ونفوذ في البلاد . ثم انقسم ملكهم
دولتين ، شمالية وجنوبية ، تهدمت الاولى سنة ٧٢٢ ق. م .
والثانية سنة ٥٨٦ ق. م . وفي خلال العصر التالية تفرقوا
وحاولوا بناء كيانات سياسية ولكنهم كانوا يخفقون المرة
بعد الاخرى الى ان تشتتوا نهائياً في القرنين الاول والثاني
للمسيح . وبما يدل على ان علاقتهم بفلسطين علاقة عابرة ان
الاسم الذي عرفت به هذه البلاد خلال التاريخ ليس مشتقاً
منهم ، بل من اعدائهم الالاء الفلسطينيين . ومن المهم ان
نلاحظ انهم حتى في اوج ملكهم لم يكونوا يقطنون المناطق
التي ينزلونها الآن والتي أعطيت لهم في التقسيم : أي السهول

والشواطيء ، بل كانت هذه موطن الفلسطينيين ومركز نفوذهم .

ثم ان اليهود الصهيونيين الذين يهاجرون الآن الى فلسطين لا علاقة لهم باليهود الساميين البتة . بل هم من جنس آخر يختلف كل الاختلاف عن الجنس السامي . وقد أثبت المؤرخون ان الكثرة المطلقة من يهود اوربا الشرقية - وهم الذين ينصبّون على فلسطين الآن - يرجعون بنسبهم الى قبائل الحزر التي اعتنقت اليهودية في القرن الثامن للميلاد وانتشرت في شرقي اوربا ووسطها ، فهم يمتون الى اليهود الذين نزلوا فلسطين قديماً بالدين فحسب ، ولا يصح ان يُتخذ الدين أساساً لبناء قومية او اقامة دولة .

اما العرب في فلسطين ، فلا يمثلون القبائل التي نزحت من الجزيرة في القرن السابع وحسب ، اذ كان عدد هذه القبائل قليلاً ، وانما يمثلون جميع سكان فلسطين الساميين وسواهم (الفلسطينيين والكنعانيين والاموريين والآراميين الخ .) الذين تتابعوا على فلسطين منذ فجر التاريخ ، ثم تعربوا في القرن السابع وما بعده . فهم سكان البلاد الاصليون ، ولم تكن اقامة اليهود في بلادهم سوى اقامة عابرة موقفة اذا قيسَت بتاريخ البلاد الطويل .

حتى لو سلمنا لليهود بحق تاريخي في الماضي ، فأبي حق يخولهم ذلك في الحاضر ؟ لو صحت العلاقة التاريخية أساساً للمطالبة بالبلاد والاراضي ، لحقّ للعرب اليوم ان يطالبوا

باسبانيا ، وللطليان بانكلترا ، ولوجب ان يجلو جميع سكان الولايات المتحدة عنها ويعيدها للهنود الحمر .

فمن أية وجهةٍ نظرنا الى المبدأ التاريخي الذي يدعيه الصهيونيون نجده لا يقوم على أساس او يصمد لبرهان .

ويدعي اليهود الصهيونيون ان فلسطين أرضهم ، وعدهم الله بها ، وتنبأ الانبياء برجعهم اليها حتماً . ويؤخذ بعض المسيحيين بهذه الاقوال نظراً لما ورد في بعض الكتب المقدسة من هذه التنبؤات . ولكن هؤلاء المسيحيين ينسون ان اليهود رفضوا الرسالة المسيحية بكاملها ، وانهم بتسليمهم بادعاء اليهود هذا يسمون مهد دينهم الى طائفة رفضته وحاربتة خلال الاجيال . ثم كيف يمكننا ان نقبل ان شعباً ما من الشعوب هو شعب الله الخاص ، وان هناك عهداً بين الله تعالى وبينه ، وان الله قد خصه بعلاقة او ميزة معينة ؟ ان فكرة « الشعب المختار » أقرب الى النازية منها الى أية فكرة أخرى ، وستلقى نفس ما لقيته تلك من سقوط وانهار .

ولنلاحظ ان الدولة الصهيونية التي تبني الآن في فلسطين أبعد ما تكون عن الدين ، فهي دولة علمانية بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، تستخدم ، في ما تستخدمه ، المبدأ الديني سبيلاً للدعاية ، ولكنها تركز نفسها في الواقع على الارض والصناعة والثقافة وسواها من مقومات الدولة العلمانية ، بل تقوم في أساسها على الفتح والاعتصاب - وما أبعد ذلك

عن الدين الصحيح !

ويحاول الصهيونيون ان يسندوا دعواهم في اقامة دولة في فلسطين بما أصاب اليهود خلال الاجيال من اضطهاد ، وما تحملوه من عذاب ، خصوصاً تحت الحكم النازي وفي الحرب الاخيرة . ويشيرون الى عشرات الالوف منهم الذين لا يزالون يعيشون في مخيمات اللاجئين في المانيا وسواها .

ولو فرضنا جدلاً انه لم يكن لليهود أي يد في هذا الاضطهاد الذي أصابهم ، ولم يسببوه بشكل من الاشكال ، بل كانت كله من مساوىء الشعوب الاخرى ، فمن المسؤول عن ذلك ، وعلى حساب من يجب أن يُصلح ؟ أصبح ان تكون شعوب اوربا هي التي تضطهد اليهود وتسومهم للعذاب ، ثم يُفرض ثمن ذلك على العرب ؟ أمن العدل ان يطلب من العرب ان يعوضوا بأرضهم وسيادتهم عن جرائم الشعوب الغربية واستبدادها ؟ أمن الحق ان يُلقى هذا العبء الثقيل على عاتق العرب ، ويجازوا هذا الجزاء ، مع انهم هم الذين حموا اليهود خلال الاجيال ، ومنحوهم من الحرية ويسروا لهم من الازدهار ما لم يمنحهم اياه أو ييسره لهم أي شعب آخر في الماضي ؟

ان قضية اضطهاد اليهود قضية عالمية ، ولا تحل الا بانتشار روح التسامح الديني والاجتماعي في العالم أجمع . أما اللاجئين والمشردون فتقع مسؤوليتهم على عاتق الشعوب التي اضطهدتهم . وما دام شبح النازية قد زال من اوربا ،

فما الذي يمنع من اعادتهم الى اوطانهم وتسهيل سبل عيشهم فيها ! الحق لو ان صهيوني اميركا انفقوا على هؤلاء ، وعلى وسائل اغاثتهم واسكانهم ، جزءاً مما ينفقونه على الدعاية الصهيونية وعلى السلاح الصهيوني ، لما بقي ما يدعى قضية لاجئين او مشردين من اليهود .

وأخيراً إن اقامة دولة يهودية في فلسطين لن تخفف في الواقع من اضطهاد اليهود في الغرب ، ولن تحل مشكلتهم ، بل قد تعقد هذه المشكلة وتزيد التعصب والاضطهاد وتدفع بالشعوب الغربية ، كلما نزلت بهم نازلة وشعروا أن لليهود يدأ فيها ، الى ان يحملوا عليهم ، ويدعوهم الى الخروج من بلادهم والهجرة الى فلسطين . وهذا ما ينظر اليه عقلاء اليهود في العالم بقلق شديد ، ولكنهم لا يستطيعون ان يعلنوه وان يوقفوا في وجه الاقلية الصهيونية المتأسكة المكافحة .

يقول الصهيونيون انهم لم يغتصبوا أرض فلسطين ، بل اشتروها بما لهم ، وان لهم بذلك حقاً في ان يقيموا دولة عليها . ويؤخذ البعض بهذا القول ، ناسين أن فلسطين كانت في خلال السنين الخمس والعشرين الاخيرة تحت نوع من الحكم يسهل بيع الاراضي هذا ، بدلا من ان يحدده او يمنعها . ومن هنا فائدة الاستقلال وقيام حكومة تحرص على سيادة الشعب وعلى حفظ تراثه . ترى لو ان جماعات غريبة نزلت لبنان أو اي بلد آخر مستقل واخذت تستهوي اهله بالاثان الباهظة فتشتري الاملاك ، وتنال الامتيازات ، وتؤلف الشركات

لاستثمار موارد البلاد، وتسنى لنفسها قوانين تحصر هذه الاملاك والموارد بها نفسها وتمنع عودتها بشكل من الاشكال الى اصحابها الاصليين - ترى لو حدث ذلك، أتقف الحكومة مكتوفة اليدين، ولا تتخذ اجراءات لحماية الارث الوطني والموارد القومية؟ لم تبذل الدولة المنتدبة هذه الحماية، بل بالعكس كان الوضع الاقتصادي الذي اقامته في فلسطين، والضرائب الباهظة التي فرضتها لدعم نظام مصطنع، كان ذلك مشجعاً على اضاءة ما اضيع من الارث الوطني بدلا من صونه وحمايته. وليس معنى هذا ان العرب غير مسؤولين مطلقاً عما حدث من هذا القبيل، وانما معناه ان المسؤولية تقع في الدرجة الاولى على من حرم العرب استقلالهم، ووضع مقدراتهم في ايدي حكومة غريبة عنهم، وانشأ في بلادهم وضعاً يرمي صراحة الى هدم كيانهم واقامة كيان آخر على انقاضه. يضاف الى ذلك أن مجرد امتلاك اراض في بلد موحد جغرافياً لا يصح ان يتخذ اساساً لتهديم هذه الوحدة الجغرافية، واقامة دولة غريبة فيها. بل يجب ان يحافظ على هذه الوحدة ويُنشأ الكيان السياسي على اساسها بالطرق الديموقراطية المعروفة.

*

هذه هي بعض « المبادئ » التي يبني عليها الصهيونيون دعايتهم. وهي، وأمثالها مما لا يمكننا تناوله في هذا المقال، لا تستند، كما وجدنا، على اساس صحيح او دعامة قوية. وكلها تنهار وتتبدد امام الحقيقة الواحدة الناصعة التي لا تقبل

رداً : وهي حق العرب في تقرير مصيرهم ، وفي الاحتفاظ
بميراثهم الطبيعي الذي ورثوه عن اجدادهم .
فما الذي يمنع عنهم هذا الحق ؟ ؟
القوة والمصلحة .

اما القوة فقوة اليهود العالمية : سياسياً ، ومالياً ،
وثقافياً .

لقد تجلت هذه القوة في الحرب العالمية الاولى فاقتطعت
من الحكومة الانكليزية وعد بلفور ، وفرضت على اعضاء
جمعية الامم ادخاله في صك الانتداب ، وظلت تحت
الانتداب تعمل في انكلترا واميركا لتأمين متابعة سياستها
الاغتصابية ، بالرغم من تنبه ساسة الانكليز الى اخطارها ،
وبالرغم من الثورات العربية المتتابة . ولقد
تمركزت هذه القوة في السنوات الاخيرة في الولايات
المتحدة . ولا يستطيع ان يقدرها حق قدرها ، ويتصور
هول خطرها ، الا من اقام في تلك البلاد ودرس
أحوالها . فكثير من الصناعات والمؤسسات المالية الاميركية
هي في ايدي اليهود ، وكذلك قل عن الصحف والراديو
والسينما وسواها من وسائل الدعاية ، علاوة على اصوات
الناخبين اليهود في ولايات نيويورك والنيوز واوهايو وسواها
من الولايات التي لها اهميتها في انتخاب الرئاسة ، خصوصاً
في هذه الايام والنزاع على أشده بين الديمقراطيين والجمهوريين ،
وكلاهما يسعى لاكتساب الاصوات من أية ناحية كانت .

ويكفي ان نعلم ان يهود الولايات المتحدة ، جمعوا في سنة ١٩٤٦ مئة وخمسة ملايين دولار ، وفي هذه السنة مئة وسبعين مليوناً ، ويعدون الآن العدة لجمع ثلاثمائة وخمسين مليوناً ، لاعانة الدولة اليهودية الجديدة - يكفي ان نعلم ذلك لنقدر خطر هذه القوة في الولايات المتحدة ، وبالتالي في العالم اجمع .

هذه هي القوة : قوة اليهود . اما المصلحة : فصلحة الاحزاب الاميركية الداخلية ، وهي ، في الواقع وكما يعلم حق العلم العارفون في اميركا ، مناقضة لمصلحة اميركا العليا كدولة ذات مصالح هامة في البلاد العربية . ثم هناك مصلحة روسيا بان تجدد لنفسها منفذاً في الشرق الادنى من وراء الحصون التي تبنيها في وجهها الدول الانكلوسكسونية في اليونان وتركيا وايران . فاذا اضطربت الحال في فلسطين وتدخل مجلس الامن بمجموعه ، أو بواسطة بعض اعضائه ، كان للسوفييت مجال للنفاذ الى هذه المنطقة الحيوية من العالم ، من وراء خطوط دفاع الانكلوسكسون الاولى .

هاتان المصلحتان : الاميركية الداخلية ، والسوفيتية الخارجية ، اتفقتا مع المصالح الاستعمارية الاخرى ومع قوة اليهود العالمية ، فأدت الى قرار التقسيم ، والى تضحية الحق والمبدأ .

*

ولذا اعود في ختام هذا المقال إلى ما قررته في بداءته من ان جوهر القضية الفلسطينية صراع بين الحق والمبدأ من

ناحية ، والقوة والمصلحة من ناحية ثانية .

وسيكون هذا الصراع عنيفاً طويلاً وسيطلب من العرب اعظم جهد وابلغ تضحية . وإذا هم لم يبذلوا هذا المطلوب ولم يضحوا بالغالي والرخيص في هذا السبيل فقد عرضوا انفسهم لخطر هائل يهددهم في جميع اقطارهم ومنازلهم .

فلو أقيمت دولة يهودية فعلاً في فلسطين وتركزت دولياً باعتراف الامم المتحدة وسائر الدول بها ، فلن يطول الوقت حتى يصبح لها اكبر قوة جوية في الشرق الادنى ، وحتى نرى لها - لا سمح الله - اسطولا تجارياً وحربياً يسيطر على هذه الشواطىء بكاملها ، وجيشاً ميكانيكياً منظماً مدعوماً بالذخائر الوفيرة والاختراعات الجهنمية . وستفتح هذه الدولة ابوابها لألوف المهاجرين يتدفقون عليها من اوربا ولمايين الدولارات تنصب عليها من اميركا ، فتغدو قوة بشرية ومالية يصعب حصرها في منطقتها ، فتتسرب بكل شكل ممكن الى بقية البلدان العربية ، وفي حال اضطراب عالمي تشكل خطراً عظيماً على هذه البلدان . ويزيد في هذا الخطر كونها تحتل الشواطىء والمنافذ البحرية ، وتقوم في بقعة حيوية بين البلاد العربية . ففلسطين بمثابة الجسر بين هذه البلاد إذا استولت عليه ايد غريبة قطعت بينه العلاقات ، وفكت عرى التعاون والاتحاد .

سيكون كفاح العرب عنيفاً مديداً ، وسيقوهم في كفاحهم هذا انهم يردون عن انفسهم خطراً من اشد ما

عرفوه في تاريخهم هولاء وجسامه ، خطراً يهدد ذات كيانه
في مختلف بلادهم ، خطراً يعرض حقهم الطبيعي واستقلالهم
المكتسب ، أنى كانوا ، للزوال والانهار . وسيقوهم في
كفاحهم كذلك انهم في جانب الحق والمبدأ ، يجابهون القوة
والمصلحة في افطع اشكالها . وقد تتغلب القوة على الحق ،
والمصلحة على المبدأ ، حيناً ، ولكنها لن تتغلب اخيراً .
فبورك البذل ، وبوركت الضحايا ، في هذا الجهاد الكريم
المقدس !

لماذا نجاهد في فلسطين ؟ *



لماذا نجاهد في فلسطين ؟ لم ترمي الشعوب العربية بالالوف من شبانها في حومة النضال ؟ لم يرتفع صوت ممثلي العرب في الامم المتحدة وسواها من المحافل الدولية دفاعاً عن موقف دولهم وشعوبهم ؟ ما هي القضية التي هبنا جميعاً للكفاح في سبيلها بالقلب واليد واللسان ، بل بالحياة نفسها ؟

الجواب الاول على هذا السؤال هو اننا نجاهد لنرد عن انفسنا التهجم والاعتداء ، ولنحمي كياننا من هول التحكم والاستعمار . وفي الواقع ان البلاد العربية لم تجابه في تاريخها

* القيت من محطة الاذاعة اللبنانية مساء ٣١ ايار سنة ١٩٤٨

الطويل خطراً أشد من هذا الذي تتعرض له اليوم . فان القوى التي يملكها الصهيونيون في شتي انحاء العالم كفيفة ، إذا تسنى لها أن تستقر في فلسطين ، بان تهدد استقلال جميع البلاد العربية وتكوّن خطراً هائلاً دائماً على حياتها . وأن ما لهذه القوى من وسائل النمو والتوسع سيجعل العالم العربي ابداً تحت رحمتها ، وسيشل حيويته ويصرفه عن التقدم والتطور في معارج الرقي والعمران - هذا إذا قدر له البقاء . فنحن انما نجاهد إذن بالدرجة الاولى دفعاً لاعتداء غادر علينا ، ومحافظةً على ذات وجودنا . واذا تشدق المتشدقون في الامم المتحدة او سواها بان عملنا هذا هو عمل اعتدائي ، فانهم انما يقبلون الوقائع رأساً على عقب ، ويجرمون في نظر الحق والتاريخ ، ويسجلون على انفسهم ، بانهم وحلفاءهم هم المعتدون ! ولا فرق في نظر التاريخ ما اذا كان هؤلاء المتشدقون يمثلون دولا كبرى او صغرى ، فاللغة ستلحق بهم ايا كانوا ، وسينالون يوماً جزاء اعمالهم ، لان الشر كفيل بان ينقلب على صاحبه والجرم بان يعود فينصب على مقتوفه .

✱

على أن لجهادنا الحاضر معنى أهم من هذا الذي ذكرنا ، وقيمة تتعدى حدودنا الى العالم أجمع وتمتد من الحاضر الى آفاق المستقبل البعيدة . ذلك أننا لا ندافع عن حقنا فحسب ، بل عن مبادئهم كل شعب من شعوب الارض

وتتخذ لدى الحكم العادل صبغة عالمية ، ومغزى تاريخياً .
وبذلك يتصل جهادنا بالجهاد الانساني خلال العصور في سبيل
الحفاظ على القيم الباقية والحريات البشرية الاصلية .

ومن حقنا نحن العرب ، بل من واجبنا ، ان نكشف
عن هذا المعنى الاوسع الاعمق من معاني جهادنا ، لتبين ،
ولتبين للعالم ، خطورة هذا الجهاد ، ولنضع انفسنا حيث يجب ،
في الموكب الانساني المناضل عن الحق والمبدأ . وهو الموكب
الوحيد الذي يسبغ على الحياة البشرية معناها ويخلق اثرًا ايجابياً
في التاريخ . إذ ليس التاريخ الحقيقي سوى قيم انسانية
تكتسب ، ومواقف ادبية تتخذ ، ومبادئ توضح وتحقق .

المبدأ الاول الذي ينطوي عليه جهادنا هو حق كل شعب
في الارض التي يعيش عليها ، والتي ورثها من آباءه واجداده
- حقه في ان يستغلها ويقيم فيها النظام الذي يختاره ،
شرط ان لا يكون في ذلك تعدد على سواه . هذا الحق ،
حق تقرير المصير ، مبدأ انساني أصيل ما زالت البشرية منذ
فجرها الاول تسعى لتحقيقه ، وما زال القادة والمصلحون
ينادون به ، والجاهير الشعبية تضحي بشبابها وشبابها في سبيله
فاذا قام العرب اليوم يكافحون من اجله ، ضد الاعتداء
الصهيوني ، وإذا ظلوا يهتّون ضد كل محاولة او مناورة في
الحاضر او المستقبل لتهديمه او للتعدي الخفي باسمه وتحت
لوائه ، فانهم لا يعملون لصون كيانهم فحسب ، بل لتدعيم
ركن من اركان الحياة البشرية السليمة ، والتقدم العالمي

الصحيح .

وعلى الامم الكبرى التي كانت وما يزال قادتها يلوّحون بهذا المبدأ كلما تأزمت احوال العالم واحتاجوا الى معونة الشعوب الصغيرة - على هذه الامم ان تتبين اليوم أي موقف تقف منه ، في الصراع القائم في فلسطين بينه وبين قوة المال والسياسة والنفوذ . لقد قال احد قادة هذه الامم في الحرب الماضية : « السلام وحدة لا تتجزأ . » أجل وكذلك هو الحق ، والحرية ، والمبادئ . وحدات لا تتجزأ : لا معنى لها إذا طبقت على شعب دون آخر ، وفي صقع من اصقاع العالم دون سواه ، او إذا نودي بها خداعاً وتغريراً ولم تتسرب الى صميم الفكر والعمل . ومهما كان موقف الامم الاخرى ، فالعرب يعلمون ان يقفون في هذا الصراع . وفي فوزهم فوز لمبدأ اساسي من مبادئ الاجتماع الانساني ، وغنم للبشرية جمعاء .

*

والمبدأ الثاني الذي يتضمنه الجهاد العربي في فلسطين هو التسامح الطائفي . فلقد صور الصهيونيون للعالم كذباً وخداعاً ان في اقامة دولة صهيونية في فلسطين حلاً للقضية اليهودية العالمية . وفي الواقع ان الدولة المزعومة لا تحلّ هذه القضية الكبرى ، بل تزيدها تعقيداً ، وتهيب بالدول الى الشك بولاء رعاياها اليهود ، والى اعتبارهم اجانب عنها والضغط عليهم بشتى الطرق لاجلائهم الى تلك الدولة الخادعة المخدوعة . بهذا سيبقى موقف

اليهود متأرجحاً بين ولائين ، وسيظلون يُنظر اليهم شزراً ، بل سيزداد موقفهم حرجاً . فقد حاولوا محاولة خاطئة : حاولوا بناء قومية على اساس دين واعتقاد ، خلافاً لما اثبتته التاريخ وقضت به سنن السياسة والاجتماع .

لا ! ان القضية اليهودية العالمية لا تحلّ إلا على اساس نشر التسامح الطائفي ، وتدعيم مبادئ الكرامة الانسانية ، بالجهاد السياسي والاقتصادي والاجتماعي . انها مرتبطة بالكفاح الشعبي ضد الاستعمار الخارجي والداخلي ، وضد كل استئثار ينال من حرية الفرد او الجماعة . هي مشكلة عالمية يتوقف تذليلها على استعداد اليهود انفسهم للانصهار في الجسم الانساني ، وعلى انتصار مبادئ حرية الفكر والعقيدة : وهي مبادئ لا تمس اليهود فحسب ، بل كل فرد او جماعة او طائفة .

والعرب في دفاعهم عن التسامح الطائفي وحرية العقيدة انما يجرون على تقليدهم الماضي . فقد بذلوا لليهود خلال التاريخ من الحرية ما لم يبذله لهم أي شعب آخر . وبلغ ابناء هذه الطائفة في عهود النفوذ العربي من الحكم وعلو الشأن ما لم يبلغوه في أية دولة أخرى . ولا يزال العرب يصرحون بانهم مستعدون للعيش واليهود في ظل حكم ديمقراطي واحد ينال اليهود فيه من الحقوق ما يؤهلهم له عددهم ، ويتمتعون بنفس الحريات والواجبات التي يتمتع بها العرب ، مما لم يتحقق بعدُ فعلاً في كثير من دول العالم .

على هذا الشكل من تحقيق الحريات الديمقراطية نحل

القضية اليهودية . والعرب في جهادهم لمنع اقامة دولة صهيونية في فلسطين ، انما يخدمون هذه الحريات نفسها بتوجيههم القضية الى حلها الصحيح ، ويكشفون القناع عن رياء الدول التي تنادي بالدفاع عن اليهود وتغلق بالوقت نفسه دونهم ابوابها . ان الجهاد العربي في فلسطين جهاد ضد هذا الباطل وامثاله ، وكفاح من أجل معالجة قضية طائفية على أسس سليمة ، ولتحقيق حريات اساسية لا يزال المدافعون عن الصهيونيين ابعد الناس عن تحقيقها ، بل هم بدفاعهم هذا يعملون ، جهلاً او عمداً ، على اضعافها وتقويضها .

*

والمبدأ الاخير والاعم الذي ينطوي عليه الجهاد العربي في فلسطين هو تغليب المبادئ على المصلحة في التنظيم العالمي . ان العالم ليسهد اليوم اسوأ مهزلة عرفها التاريخ . يشهد منظمة أممية تضم اكثر دول العالم ، عاجزة عن أن تحلّ مشكلة واحدة من المشاكل الدولية . ها ان الامم المتحدة ، بهيئتها العامة ومجلس الامن ومجلس الوصاية ، لم تستطع بعد ان تحسم خلافاً واحداً من الخلافات التي تصدّع جبهة البشرية وتندثر بحرب جديدة هائلة : في كوريا والصين واندونيسيا والهند وايران وفلسطين واليونان والمانيا ، بل في كل بقعة حساسة من بقاع الارض . وما ذلك الا لان الدول الاعضاء لا تزال تغلب المصلحة على المبدأ ، والدول الكبرى خاصة لا تزال تسيّرهما شهوة التحكم والاستئثار لا الرغبة في تحقيق القيم الصحيحة في

حياة الشعوب وعلاقاتها بعضها بعض . والعرب في دفاعهم الحاضر انما يقفون في وجه المصلحة والشهوة ، فلا يخدمون انفسهم فحسب ، بل يخدمون العالم اجمع ويقومون بنصيبهم في تنبيه البشرية الى الطريق الوحيدة التي تؤمن سلامتها - طريق المبادئ الاساسية الثابتة ، لا المصلحة المتوجرجة والشهوة الغاصبة .

*

ليس في بلاد العالم بلد له من القيمة العالمية ما لفلسطين . ولم تحتل فلسطين مكانتها في التاريخ بميزاتها الطبيعية ومواردها المادية ، وانما بالمعاني الانسانية والقيم الرفيعة والمبادئ الاصلية التي شعت منها على العالم باجمعه . والجهاد العربي اليوم لا يتخذ معناه الصحيح الا من ضمن هذا الاطار وعلى ضوء هذه الحقيقة . انه جهاد عربي في سبيل الحفاظ على كيان العرب واستقلالهم ، ولكنه الى جانب هذا - بل اقول قبل هذا - جهاد انساني عالمي ارجوان يظل يتابع تقليد فلسطين الايجابي في بث القيم الصحيحة ، والدفاع عن المبادئ والحريات والمسؤوليات الانسانية الاصلية .

فهرست

٣	توطئة وتقدمة
٥	فداحة النكبة
١٣	واجب المفكر
١٨	المعالجة القريبة
٤١	الحل الاساسي
٥٦	معنى النكبة
٦١	ملحق في مبادئ جهادنا في فلسطين
٦٥	الصراع بين المبدأ والقوة في قضية فلسطين
٨١	لماذا نجاهد في فلسطين ؟

دَارُ الْعِلْمِ لِلْمَسْلُوكِينَ كتب العرب والاسلام

ق.ل.

٤٠٠	للدكتور فيليب حتي	العرب
١٥٠	ترجمة الدكتور عمر فروخ	الاسلام على مفترق الطرق
١٥٠	للدكتور نبيه فارس	العرب الاحياء
١٠٠	للدكتور عمر فروخ	نحو التعاون العربي
٥٠٠	ترجمة صلاح الدين المنجد	رائد التراث العربي
٢٥٠	علي ناصر الدين	قضية العرب
٣٠٠	عبدالله العلايلي	أيام الحسين
١٥٠	ساطع الحصري	صفحات من الماضي القريب
١٥٠	اميل الحوري حرب	مؤامرة اليهود على المسيحية
		سعد زغلول
		مدحت باشا
		جمال الدين الافغاني
١٥٠	قدري قلمعجي	صلاح الدين الايوبي
		ابو ذر الغفاري
		محمد عبده
٣٠٠	المستشرق كارل بروكلمان	تاريخ الشعوب الاسلامية

وكيل الدار في مصر : مكتب الكشف للنشر ٣ شارع فاروق
وكيل الدار في العراق : المكتبة العصرية لصاحبها محمود حلمي

١٠٠ قرش لبناني سوري

مطبعة الكشف بيروت

GENERAL BOOKBINDING CO.

78

206NY3

4

318

P

7126

DATE DUE

MAY 20 1960

FEB 18 2013

JAN 23 2013

GAYLORD

PRINTED IN U.S.A.

LEHMAN LIBRARY

DS

126.92

.Z8

1948

DEMCO

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58111557

DS126.92 .Z8 1948 Ma n a al-nakbah.

RECAP